عيون الأدب الأجنبي



ترجمة : يوسف كامل حسين

شوساكو إندو ● البحر والسم

أكيا + تامايا + محيي الدين اللباد

شرقيات



علي مولا

وفقاً لتصور طرحه الناقد والمترجم الأمريكي اللماح فرانسيس ماتاي، فإن إندو (١٩٢٣ –) أدرك، شأن الكثيرين من المفكرين في اليابان قبله، أن الغرب يتلقى وحيه من الإيمان المسيحي حتى حيثما يتعرض هذا الإيمان للرفض، وبالمقابل فإن الشرق يتلقى وحيه من نزعة وحدة الوجود، وهكذا فإن التفاعل الثقافي والحضاري يصبح شكلاً منطوياً على المخاطرة من أشكال التواصل. والكاتب الياباني الذي يحاول الاستعارة من الغرب يخوض غمار مخاطرة خاصة، فنزعة وحدة الوجود لا تعرف توتراً بين الأضداد، بين الخير والشر، بين الجسد والروح، بين الله والشيطان على نحو ما هو الحال في قرارة الرؤية الشعبية المسيحية للحياة. يقول إندو إن

[التتمة في الطوية الخلفية]

البحر والسم

رواية يابانية

العنوان الأصلي:
Umi to dokuyaku

ترجمت عن:
The sea and poison
Shüsaku Endö

البحر والسم

شوساكو اندو

ترجمة: كامل يوسف حسين

© الطبعة العربية الثانية لهذه الترجمة
دار شرقيات ١٩٩٧

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق - القاهرة. ت: ٣٩٠٢٩١٣
س. ت: ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

رقم الايداع ١٩٩٥/١٠٧٣٢
الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 91 - 9

شوساكو اندو

البحر والسم

رواية يابانية

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار شرقيات للنشر والتوزيع

مقدمة

ليس الروائي الياباني شوساكو اندو Shüsaku Endo (١٩٢٣ -) بالغريب على القارئ العربي فقد سبق لنا أن تصدينا لتعريف القارئ به في أكثر من دورية عربية واحدة، ثم عدنا في مرحلة تالية فقدمنا له ترجمتنا لأشهر أعماله، وهو رواية «الصمت Silence»، وها نحن نعود لنلتقي به في عمله الماثل بين يدي القارئ: «البحر والسم The sea and poison».

في تقديمنا للترجمة العربية لرواية «الصمت» قمنا بمحاولة للتعريف الشامل بعالم إندو الروائي، وستتولى مقدمة المترجم عن اليابانية لهذا العمل التعريف بأبعاد رواية «البحر والسم» ومكانها في الإطار الكلي من أدب إندو، لكننا هنا نؤثر التشديد على مفهوم واحد نرى فيه جوهر أعمال إندو، وهو ما سبق للقاص الياباني نفسه أن أسماه «مستنقع اليابان».

في رواية «الصمت» يتخذ المستنقع بعداً دينياً، فيغدو رمزاً لعجز اليابان عن تقبل واستيعاب مفهوم الألوهية على نحو ما تطرحه الديانة المسيحية، وفي فقرة محورية من العمل يقال للبطل صراحة إن ما ألحق الهزيمة به لم يكن خصومه، ولا إرادته هو نفسه، وانما مستنقع اليابان، فكل الجذور التي تغرس فيه تتحلل، تذوي، تموت.

هذا البعد ذاته يتكرر في مسرحية «البلاد الذهبية» التي قدم فيها إندو تصوراً موازياً لما قدمه في رواية «الصمت». في هذه المسرحية يقول مسؤول ياباني لبطل «الصمت» نفسه: «لكن المستنقع له أيضاً جوانبه الطيبة، وليتك تسلم نفسك لدفئه المريح، إن تعاليم المسيح تشبه اللهب، وهي شأن اللهب تضرم النار في الإنسان، لكن الدفء الخدر لليابان يبعث النعاس في الأطراف».

ومفهوم المستنقع، الذي يشبَه إندو في إطاره اليابان بمستنقع هائل يمتص كل ما يأتي من خارجه فيغيره ويحيله إلى جزء من ذاته، يأخذ في «البحر والسم» بعداً أخلاقياً، هو في الواقع امتداد للبعد الديني الموجود في «الصمت». ونحن نرى المستنقع عند أكثر مستوياته براءة في المريض الفضولي الذي يصحبنا في مطلع هذا العمل. إنه موظف بسيط، يسعى إلى نوع عادي من السعادة، كما يحدثنا هو، ولا ينشد إلا طفلاً، وداراً صغيرة في الضواحي، وعملاً متواضعاً، أو كما يقول هو: «قليل من السعادة العادية». لكن هذا المطلب وذلك النوع من السعادة هو بالضبط ما ينشده أولئك الذين سنصادفهم تحت عنوان «المتهمون» الذين قاموا بعملية تشريح الأسرى الأحياء، هكذا فإن إندو في الواقع يفترض ضمناً أن الفارق الوحيد بين المريض الفضولي لايعدو أن يكون فارقاً في الظروف.

لايترك إندو موضوعة المستنقع عند هذا الحد، لكنه يمضي في تطويرها عبر سلسلة من الروايات والقصص القصيرة الأخرى، لم يقدر لها حتى الآن أن تترجم عن اليابانية، ولعل أبرز هذه القصص «الرجل الأصفر yellow man» وفيها يقول أحد الشخوص عن نفسه: «إن رجلاً أصفر مثلي لم يعايش قط شيئاً عميقاً ومتطرفاً كالوعي بالخطيئة الذي تعايشونه أنتم معشر الرجال البيض، وكل ما نعرفه هو إعياء عميق، تعب غائم في لون جلدي يغوص بعيداً، ثقيلاً واهناً».

لم يكتف إندو بطرح موضوعته عن المستنقع الياباني من خلال أعماله الروائية العديدة، وإنما قدم تحليلاً نظرياً مطولاً لها في سلسلة من المقالات تعرض فيها لما أسماه «الافتقار الياباني الثلاثي للحساسية»، فهناك الافتقار للحساسية إزاء الرب، والافتقار لها بالنسبة للخطيئة، والافتقار لها فيما يتعلق بالموت، ولم يتردد إندو في أن يوضح أن هذا الافتقار للحساسية هو شيء يجده في أعماق ذاته، ويتعين عليه أن يصارعه.

اليابان، على نحو ما تناهت إلى وعي إندو، مستنقع هائل، عاجز عن الاستقبال الإيجابى لما هو مفارق لذاته. وفي الوقت نفسه فإن البشر يعيشون في رحابه تضيع منهم، في غمار دفنه المخدر، الحساسية نحو الاله- الخطيئة- الموت.

ما المخرج إذن؟

إن رد إندو على هذا السؤال أبعد ما يكون عن المباشرة، وإن لم يفتقر إلى الوضوح في الوقت نفسه. وليس من قبيل المبالغة القول بأن منطلق الأدب الروائي عند إندو هو صرخة القديس بولس المتسائلة «منذا يخلصني من جسد الموت هذا؟» وإندو لايتردد في تبني إجابة بولس نفسها.

في سلسلة من الروايات الخفيفة التي يغلب المرح على معظمها، يقدم إندو مجموعة من الشخوص، هي بوضوح شخصيات مسيحية، بمعنى أنها تعكس جوانب شتى في شخصية المسيح، وتجسد حب المسيح. هذه الشخصيات أبعد ما تكون عن القوة أو البطولة، فمن شأن هاتين الصفتين أن تغربا الشخصيات الأخرى والقارئ بالضرورة. ولعل هذا هو السبب في أن إندو يتجنب الحديث عن الشهداء، ويكتب بتعاطف شديد مع المرتدين، وهذه الشخصيات الرمزية تترك تأثيراً مراوغاً في نفس القارئ، لكن هذا التأثير يتميز في الوقت نفسه بأنه يتوغل في النفس، ويتخذ أبعاداً حاسمة، وكل من يعرف مثل هذه الشخصيات لابد لأعماقه أن تتغير.

في «الصمت» صادفنا المرتد إيشيجيرو، في «البحر والسم» سنصادف سوجورو، ولو تأمل كل منا في أغوار عينيه عبر المرآة فربما يصادف بطلاً ثالثاً، عندها يكون إدراك ما وراء هذه النظرة هو المدخل إلى التغيير.

كامل يوسف حسين



مقدمة الطبعة الانجليزية

برز شوساكو إندو كروائي كبير في منتصف الخمسينيات، وذاع صيته في ١٩٥٨ حينما فازت روايته «البحر والسم» بجائزة أكوتاجاوا الشهيرة The Akutagawa Prize. وإلى جوار كتابة الروايات، يعكف إندو كذلك على كتابة المسرحيات والمقالات الصحفية والكتابة للشاشتين الصغيرة والكبيرة، وإلى جوار هذا الانشغال، الذي يميز، شئنا أم أبينا، معظم االكتاب اليابانيين، فإنه يظهر بين الحين والآخر على الشاشة الصغيرة للتعقيب على هذه القضية أو تلك كما يجري مقابلات دورية للنشر في المجلات الأسبوعية.

تلقى إندو العماد تتويجاً لاعتناقه الكاثوليكية بينما كان طالباً صغيراً، دون أن يفكر في الأمر كثيراً، أو يجد دينه الجديد باعثاً على الضيق أو مصدراً للعزاء على نحو خاص. التحق بجامعة واسيدا، وهي إحدى الجامعات الخاصة الشهيرة في اليابان، معتزماً دراسة الطب، لكنه اختار الأدب الفرنسي. بعد فترة قصيرة أمضاها في الخدمة العسكرية في نهاية الحرب، مضى إلى فرنسا للقيام بالدراسات العليا، وخلال وجوده هناك تأثرّ كثيراً بالمدى الذي باغته التقاليد الأوروبية في تجذرها في المسيحية، وبالتالي بأهمية هذه الأخيرة حتى بالنسبة لأولئك الأوروبيين الذين لايعدون أنفسهم رسمياً من معتنقيها. وشرع في مقارنة هذا بالموقف في بلاده وبموقفه الخاص حيال الكاثوليكية التي كانت بالنسبة له، ووفق تعبيره، لاشيء يشكل جزءاً منه، وإنما حلة ارتداها.

وفقاً لتصور طرحه الناقد والمترجم الأمريكي اللماح فرانسيس ماتاي، فإن إندو أدرك، شأن الكثيرين من المفكرين في اليابان قبله، أن الغرب يتلقى وحيه من الإيمان المسيحي حتى حيثما يتعرض هذا الإيمان للرفض، وبالمقابل فإن الشرق يتلقى وحيه من نزعة وحدة الوجود، وهكذا فإن التفاعل الثقافي والحضاري يصبح شكلاً منطوياً على المخاطرة من أشكال التواصل. والكاتب الياباني الذي يحاول الاستعارة من الغرب يخوض غمار مخاطرة خاصة، فنزعة وحدة الوجود لا تعرف توتراً بين الأضداد، بين الخير والشر، بين الجسد والروح، بين الله والشيطان على نحو ما هو الحال في قرارة الرؤية الشعبية المسيحية للحياة. يقول إندو إن مثل هؤلاء الكُتاب اليابانيين قد سقطوا، حتماً، على عنصر واحد، متجاهلين العنصر الآخر المتواتر معه، سواء بتجاهل العنصر النقيض تماماً، أو بتفسيره على نحو بالغ التهافت إلى حد يفتقر معه للقوة الكافية لجعله عنصراً في صراع حقيقي.

اختار إندو، دون أن يردعه فيما يبدو الفشل المزعوم الذي مُني به العديد من أبناء وطنه، لا أن يحاول فحسب أن يصور على وجه الدقة هذا الشكل من أشكال الصراع، وإنما أن يضع هذا الصراع ضد السلبية الفاترة لنزعة وحدة الوجود التي ينظر إليها باعتبارها المناخ الديني السائد في اليابان. والعبارة التالية توضح مدى الإصرار وراء هذا القرار وإلى أي حدّ أدرك صعوبة المهمة التي يتصدى لها:

«بمقدورنا على الأقل أن نبدأ... بوسعنا أن نحمل عالمنا المقعر دون إله، وأن نقارنه بأقصى ما نستطيع من قوة بالعالم الغربي المجدب الذى يعرف وجود الإله. وأعني بقولي «ما نستطيع من قوة» أن علينا أن ننحي جميع المناهج التي تكبح الوهم القائل بأن المقعر هو حقاً عالم محدب، وهو وهم

لايزال الكثير من الكتاب حتى اليوم يؤمنون به، علينا ألا نفكر في أدب الغرب المسيحي باعتباره ينساب في تيارنا الحضاري، وفي الوقت نفسه ألاّ نبقيه على مسافة تكفل له التوقير، حيث أن هذا الشيء ذاته الذي يفصل عنّا إلى هذا الحدّ الكبير هو الذي يثقل علينا أكثر من غيره».

وفي الروايات الثلاث تبرز فيها المقارنة القوية التي تحدث عنها كأقوى ما تكون، وهي روايات «الرجل الأصفر» و«الآن حان دورك» و«الصمت» فإن المنهاج المحدد الذي يعمد إليه إندو هو وضع الشخصيات اليابانية والأوروبية إحداها ضد الأخرى، فنجد أنفسنا بإزاء يابانيين وأوروبيين تشكل حضارة كل فريق منهم بالنسبة للفريق الآخر محنة حقيقية غالباً.

كتبت رواية «الرجل الأصفر» الصادرة عام ١٩٥٥ في شكل رسالة بعث بها «تشيبا»، وهو طالب شاب لم يعد يؤمن بالكاثوليكية، إلى راعيه السابق الأب برو، وهو مبشّر فرنسي. يتألف معظم الرسالة من فقرات من مذكرات قس فرنسي آخر ارتدّ عن المسيحية يدعى ديران، والذي لقي حتفه، وكان متزوجاً من امرأة، تدعى كيميكو. يشكل برو وكيميكو الطرفين الأقصى، ولا يلاحظ أيّ منهما بشكل كافٍ الثقافة الأخرى التي يتعين أن تؤرقه، بينما نجد أن ديران وتشيبا من شخوص لإندو، أي من تلك الشخوص الواقعة في الأرض الوسيطة. وفي هذه الرواية تبدو هذه الشخوص وقد اكتسبت من عثراتها الشخصية القدرة على إدراك أن المفاهيم «الصفراء» و«البيضاء» هي في النهاية مختلفة بصورة قاعدية، وأن محاولة للتبشير في اليابان ينبغي أن تنتهي بالاخفاق. تشيبا وديران كشخصيتين يختلفان اختلافاً حاداً، وبالرغم من ذلك فإنه اختلاف يؤكّد صحة قناعتهما الواضحة، فتشيبا لايشعر بشيء إلاّ بنوع عام من الوهن والضجر بسبب فقده لإيمانه وبسبب مغامراته الخاوية من العاطفة مع ابنة عمه، أمّا ديران، الذي تخلىّ عن دينه، فيعذبه الشعور بالخطيئة والخوف من اللعنة.

في رواية «الآن حان دورك» الصادرة عام ١٩٦٥ يصور إندو بمزيد من التفصيل الوجه الآخر للعملة، فإذا كان الأوروبى في اليابان يواجه مهمة مستحيلة في محاولة استيعاب الثقافة اليابانية، فكذلك الحال بالنسبة للياباني في أوروبا الذي تواجهه الثقافة الغربية. والبطل «هان» هو «تاناكا» المحاضر الشاب في الأدب الفرنسي الذي يذهب إلى باريس لاستكمال دراسته العليا، ويرجع مصاباً بخيبة الأمل ضجراً ومقتنعاً فوق ذلك بأن الأمر ينبغي أن يكون كذلك، حيث أن أي ياباني يجتاز التجربة ذاتها ويظل مقتنعاً بقدرته على استيعاب الثقافة الغربية سيكون من الافتقار إلى اللماحية بحيث لايدرك ضخامة هذه المهمة.

وأخيراً في رواية «الصمت» التي حصل إندو بها على جائزة تانيزاكي في عام ١٩٦٦ يصور الروائي الياباني الصراع بين المفكرين الشرقي والغربي من منظور درامي بالغ الحدة، وتقوم هذه الرواية، شأن رواية « البحر والسم»، على أساس واقعة تاريخية هي ارتداد الراهب اليسوعي البرتغالي «فيريرا» في القرن السابع عشر عن المسيحية.

لم يكن «فيريرا» راهباً عادياً، وإنما كان رأس الكنيسة في اليابان ورجلاً عمل بصورة بطولية طوال عقدين من الزمان في ظلّ أقسى الظروف ولهذا فإن ارتداده عن الدين تحت طائلة العذاب كان لطمة قاسية للمسيحيين الذين يتعرّضون للاضطهاد وصدمة تفاقم تأثيرها حينما اتخذ «فيريرا» زوجة

يابانية وتعاون تحت ضغط لايدري أحد مداه مع مسؤولي المقاطعة في الكشف عن المسيحيين. وليس هناك شيء على وجه التقريب مما أمكن معرفته عن تاريخ فيريرا اللاحق، الأمر الذي منح إندو آفاقاً مناسبة للإبداع.

في طرح إندو الروائي لهذه الواقعة يواجّه المرتد العجوز براهب شاب يدعى رودريجو، وهو طالب سبق له أن درس على يديه في دير كويمبرا، أعتقل بعد وقت قصير من وصوله منْ ماكاو إلى اليابان. وهناك شخصية أخرى رئيسية في الرواية هي حاكم نجازاكى إينوي، الذي يحقق مع الراهب الشاب، ويخبره بأن آماله في التبشير بالمسيحية في اليابان هي آمال خاوية، لأن اليابان تشبه مستنقعاً يجتذب كل شيء إلى ذاته، ولكنه في غمار هذه العملية يغيره كله على نحو جوهري. ويقاوم رودريجو هذا الطرح، ولكنه حين يسمع الشيء نفسه من فيريرا، الذي يجله كثيراً، فإن الأمر يكتسب قدرة أكبر على الإقناع، ويمضي فيريرا إلى القول بأنه حتى أولئك الشهداء الذين بدا أنهم لقوا حتفهم على نحو بطولي في سبيل الدين الذي حمله الرهبان الأجانب إليهم في سبيل رؤية من إبداع أذهانهم، لا ترتبط إلا بصورة سطحية بما حاول الأوروبيين تعليمهم إيّاه، ويتعرض رودريجو لأزمة دينية يجتازها وهو لايزال على إيمانه بالمسيح، وإن لم يعد على يقين من أن الكنيسة التي وثق بها ذات يوم كل الثقة قادرة بالفعل على الحديث مع البشر جميعاً من منطلق الحكمة والأصالة الفكرية ويراوده الشعور بأن المسيح يحادثه محطماً الصمت الذي استمدت منه الرواية عنوانها، ويخبره بأنِ عليه أن يطأ الأيقونة، تلك الصورة البرونزية للمسيح التي يستخدمها مسؤولو المقاطعة في اختيار مَن يشتبه في كونهم من المسيحيين ولإضفاء الطابع الشكلي على الارتداد عن الدين، ذلك لأن المسيح نفسه كان حرياً به أن يفعل هذا لينقذ من المزيد من المعاناة البؤساء الجاهلين من المزارعين الذين آمنوا بالمسيحية على يد الرهبان.

وفي عجالة قصيرة كهذه ليس بمقدوري أن أطرح ما يمكن أن يكون نقداً لموضوعة إندو أو طريقته في تطويرها وتفسيرها، غير أنني أعتقد أنه قد يكون من المهم أن نلفت انتباه القارئ ونعلّق بصورة قصيرة على الاتهام الموجه إلى روايات إندو وبصفة خاصة إلى روايته «الصمت» من قبل المسيحيين اليابانيين والمبشرين الأجانب على السواء. وكما عبر فرانسيس ماتاي، فإن إندو يبالغ في الصراع بين المنظورين الدينيين الغربي والشرقي، وهكذا يكدّس الأوراق ضد احتمال التقارب، حتى وإن تعين عليه كما في حالة رواية «الصمت» أن يشوّه التاريخ ليقوم بهذا.

وأعتقد أن هذا الاتهام قد يكتسب بعض الثقل إذا ما قبل المرء بالمقدمة التي أنطلق منها، وهو مالا يمكنني القيام به، لأنني أشعر بأن القيام بذلك يتضمن خلط اللاهوت والفلسفة والتاريخ بالنقد الأدبي، فإندو، في نهاية الأمر، روائي، وعلى المرء أن يحكم عليه وفقاً للمعايير الأدبية، وهي معايير متشددة بما فيه الكفاية.

غير أنني أتيت على ذكر هذا الهجوم لا لأعبر عن اختلافي معه فحسب، ولكن لأنني أعتقد أن قدرة إندو على إثارة هذا النوع القوي من رد الفعل تكشف الكثير عنه، فهي تبرزه مختلفاً بحدة عن كتاب من نوعية ميشيما وتانيزاكي وكاواباتا. وقد أبلغ جراهام جرين يوماً صحفياً فرنسياً أجرى مقابلة معه بأن تأليف الروايات أمر مختلف عن تاليف الأطروحات الدينية، وهكذا فإنه حين يجلس للكتابة

فإن اهتمامه الوحيد هو إبداع أفضل رواية ممكنة، ومن ثمّ فإنه يؤثر أن يُعرف بأنه كاتب تصادف أنه يؤمن بالكاثوليكية، وليس كاثوليكياً مهنته الكتابة، وقد نقل نقّاد كثيرون على اختلاف القناعات هذه الملاحظات، وفي اعتقادي أنها تلقي ضوءاً على موقف إندو الذي تأثر كثيراً بجرين، غير أن ما أعقب ذلك لقي فيما يبدو إهمالاً عاماً، فقد أضاف جرين في هذه المقابلة قوله: «حينما يكون المرء كاثوليكياً فإن ما يكتبه يكون مصطبغاً بالكاثوليكية»، وهنا أيضاً وعلى الرغم من فرضية إندو الخاصة بالثنائية فإن القاص الياباني يجسّد معنى جراهام جرين في عبارته الأخيرة.

لقد طرحت المسيحية، أيّاً كان مدى صلاحيتها كدين، وإيما كان مدى تماسك الفكرة الدينية ذاتها، رؤية درامية للإنسان على الأقل باعتباره مخلوقاً حراً، وبالتالي بوصفه كائناً مسئولاً وُضع في محور الكون بحسبانه كياناً قادراً على الهبوط إلى قرار اللعنة أو السمو إلى آفاق الخلاص. وقد كانت تلك الرؤية مناسبة لطبيعة الإلهام الفني، أياً كان القمع الذي مارسته الكنيسة ذاتها، وقد ألهمت هذه الرؤية منذ كتب القديس أوغسطين اعترافاته أكثر الآثار الأدبية التي عرفها العالم احتراماً في طابعها الشخصي.

وبغض النظر عن يقين أو انعدام هذا اليقين، فإن نبضه الفني هو نبض مسيحي تماماً بالمعنى الذي أشرنا إليه توّاً، تسيطر عليه تماماً فكرة الحرية والمسؤولية، ويعي كلية العلاقة الجوهرية التي تربط هذين العنصرين. هكذا فإن إندو لايستطيع الاقتصار على العالم الشخصي الذي يشكل الجنس والحس سداه ولحمته، على نحو ما يفعل معظم الروائيين اليابانيين، غير أنه يتعينّ عليه في أعماله الجادة شاء أم أبى أن يعالج الاهتمامات الأوسع نطاقاً الجديرة بإثارة ردود الأفعال من جانب الرأى العام. هكذا فإن إندو هو الروائي الياباني الكبير الوحيد الذي واجه في الرواية الماثلة بين يدي القارئ مشكلة المسؤولية الفردية في زمن الحرب.

أعتقد أن الروائيين اليابانيين قد صادفهم سوء الحظ، من حيث أن ساحتهم الأدبية ليس فيها إلاّ عدداً محدوداً من النقاد الذين يتميزون باتساع البصيرة وتكامل الفكر، بحيث يواكبون مسيرتهم، وإن كان سوء الحظ هذا مما يحسدهم عليه الروائيون البريطانيون والأمريكيون دونما شك. ولايزال إندو في قمة عطائه، وإذا أراد أن يكتب كأفضل ما في مقدوره أن يكتب وأن يحدّ من بعض أوجه نشاطه فإنني أعتقد أنه قادر على الوصول إلى مكانة في الأدب العالمي تعادل في سموقها على الأقل ما وصل إليه بعض الكتّاب اليابانيين الذين يعرفهم الغرب الآن بصورة أفضل من معرفته لإندو.

ولعل رواية «البحر والسم»، على الرغم من كونها عملاً مبكراً من أعمال إندو، تتيح للقارئ أساساً كافياً للخروج بحكم يصدره بنفسه.

مايكل جالاجر



الجزء الأول

مُفتَتَح

في شهر أغسطس، أشد فصول السنة قيظاً، انتقلت بمسكني إلى هنا، إلى هذه المنطقة السكنية التي يدعونها غرب ماتسوبارا، وليس تعبير «منطقة سكنية» إلاّ إحدى نزوات الوكالة العقارية التي تمتلك المنطقة، ذلك أنه، لمّا كان على المرء أن ينفق ساعة كاملة ليصل إلى هنا من محطة «شين جوكو» في وسط طوكيو، فإن الدور كانت قليلة. امتد الطريق الرئيسي عابراً المحطة المحلية في استقامة صارمة، وراحت الشمس تلهب الطريق بوهجها الذي لايرحم.

تعبر العربات القلابة المنطقة دوماً حاملة الحصى من مكان إلى آخر، وعلى ظهرها عمال في مقتبل العمر، يلفون مناشف حول أعناقهم، ويرددون الأغنيات الشعبية، على نحو ما يفعل أحدهم الآن:

إفرد قلوعك بلا

دمع على المرسى،

كن رجلاً، وغيّب حزنك!

تثير الناقلات سحباً كثيفة من الغبار في كل مرة تمر بالمنطقة، ثم حينما يهبط الغبار يلوح تدريجياً لعيون الناظرين مشهد المحال على جانبي الطريق، على الجانب الأيمن كان هناك حانوت لبيع التبغ والسجائر وجزار وبدال، أما على الجانب الأيسر فهناك مطعم ومحطة للوقود، وهذا تقريباً كل ما هنالك. آه، لكنني نسيت أن أذكر أن هناك محلاً للملابس أيضاً، حانوت لايحيطه شيء، يقع على بعد خمسين متراً من محطة الوقود، فلا تملك إلا أن تتساءل لماذا اختار صاحبه بقعة كهذه على هذا البعد من المدينة.

كست الناقلات لافتة محل الثياب الخاصة بالرجال وواجهة العرض التابعة له بطبقة سميكة وجيرية من الغبار. بدت في الواجهة دمية للعرض. لها لون الجلد الطبيعي، وقوامها يثير الانزعاج، وهي من ذلك النوع من الدمى الذي يستخدم في المعارض الطبية وما إلى ذلك، تمثل جذع رجل فحسب، رجل أبيض فيما يبدو، ويلوح من الطلاء الأحمر الذي يعلو رأس الدمية أن مصممها كان يهدف إلى جعلها دمية صهباء، هكذا راحت الدمية بأنفها الطويل وعينيها الزرقاوين تبتسم اليوم كله ابتسامة غامضة.

حينما انتقلت إلى هنا كنّا في وسط فترة جفاف.

قالت زوجتي:

- هذا الحر الفظيع، أعتقد أني سآخذ حماماً، لكن الحمام بعيد، أليس كذلك؟

كان عليك للوصول إلى الحمام أن تقطع حوالي أربعمائة متر على امتداد الطريق الرئيسي

بعد تجاوز محطة الوقود. قلت:

– بلى، ولكن هناك حماماً على الأقل. ليس هناك طبيب، وعليّ أن أعالج هذه الرئة مرة كل أسبوع.

في اليوم التالي، وجدت زوجتي عيادة طبيب، قالت إنها قد شاهدت لافتة العيادة معلقة في مكان قريب من الحمام. في العام الماضي وحينما صوّرت صدورنا جمعياً باستخدام أشعة إكس في الشركة التي أعمل بها، ظهر تجويف صغير في الجزء الأعلى من رئتي اليسرى، ومن حسن الحظ أن غشاء الجنب قد التهب، وكان بمقدوري أن أمضي دون خوض عملية جراحية تقطع فيها ضلوعي، لكنني كنت أتلقى علاجاً للاسترواح الهوائي، طول ستة شهور سبقت انتقالنا إلى هنا، لذا تعين عليّ أن أعثر على طبيب جديد بأسرع ما يمكن.

للوصول إلى عيادة دكتور سوجورو ذاك مضيت باحثاً عن الشارع الذي حدثتني زوجتي عنه. كانت نوافذ الحمام تعكس شمس الأصيل الزاهية، كانت عائلات المزارعين بالمنطقة تأخذ حمامها بالداخل، ذلك أني كان بمقدوري الاستماع لصوت انسكاب الماء وارتطام الدلاء الخشبية، على نحو واهن، وإن كان مميزاً. حدثت نفسي باكتئاب لامبرر له بأن ذلك الصوت يرن فرحاً.

سرعان ما عثرت على عيادة الطبيب وراء الحمام مباشرة، يفصلها عنه حقل من ثمار البندورة الناضجة الحمراء. كانت العيادة داراً صغيرة متهالكة البناء، أقرب إلى الإسطبل منها إلى العيادة، لم يكن هناك شيء على الإطلاق يمكنك أن تسميه سياجاً، ومثّل بعض النباتات البنية اللون حداً يواجه حقل البندورة. كانت هناك فسحة من الوقت قبل المغيب، لذا رحت أتساءل: لماذا أغلق الطبيب النوافذ الخشبية؟ كان هناك في الحديقة حذاء طفل ملطخ أحمر اللون، وقرب الباب مأوى يبعث الرثاء لكلب صغير، ولكن الكلب نفسه لم يبد له أثر. دققت الجرس عدة مرّات، لكني لم أتلقى رداً، في النهاية درت متجهاً إلى الحديقة، عندئذ فتح أحد مصاريع النوافذ قليلاً، وأطل رجل يرتدي معطفاً طبياً:

– من أنت؟

– طيب، إنني مريض.

– ماذا تقصد؟

– ما أود الحصول عليه هو علاج للاسترواح الهوائي.

– الاسترواح الهوائي!

بدا الطبيب رجلاً في الأربعينات من عمره أو نحو ذلك، راح يحدق شارداً نحوي، حاكاً دونما توقف ذقنه بيده اليمنى. بدت الغرفة، ربما لأن الشمس الغاربة كانت بعيدة عن الدار، مظلمة على نحو يوحي بالنذير. في الظل الكثيف لاح وجه الرجل رمادياً ومنتفخاً على نحو غريب.

– أحسب أنك قد ترددت على أحد الأطباء من قبل؟

– نعم، كنت أتلقى هذا العلاج طوال ستة شهور.

– هل لديك صورة بأشعة إكس لصدرك؟

– طيب، نعم، لكني تركتها في الدار.

– ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً دون أشعة إكس.

وبهذه الكلمات أغلق الطبيب المصراع مجدداً. وقفت للحظة هناك أحدق مشدوهاً، لكن الدار لم يند عنها أي صوت. في تلك الليلة قلت لزوجتي:

– ظريف حقاً هذا الطبيب، ظريف حقاً.

– آه. آحسب أن لديه مرضى يعودهم بانتظام.

– ربما كان الأمر كذلك، ولكن إلى جوار هذا فإنه يتحدث بلكنة من نوع ما، ولابد أنه لم يقم طويلاً في طوكيو، وإنما قدم من مكان آخر.

– طيب، على أية حال يتعين عليك أن تجد لرئتك علاجاً قبل الذهاب إلى كيوشو، فقد اقترب موعد زفاف أختي، وسيحل في شهر سبتمبر.

– نعم، لكني لم أذهب إلى عيادة الدكتور سوجورو في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه. شرع تنفسي يغدو مؤلماً تدريجياً مع نقص الهواء الداخل إلى رئتي اليسرى شيئاً فشيئاً. وفي علاج الاسترواح الهوائي يدفع الهواء جانباً لتقليل التجويف المتخلل لغشاء الجنب الضاغط على الرئة. والإبرة المستخدمة في دفعه هي إبرة ضخمة غليظة في مثل حجم إبرة الرفو، ويعلو المطّاط طرفها. ليس غرس الإبرة هو الذي يضايقني كثيراً في هذه العملية لكنه الموضع الذي يتعين عليهم غرسها فيه، فهي تغرس في الجانب الأسفل، وهذا الجانب هو بقعة يغطيها بالطبيعة ذراعك ويحميها، وفي اللحظة التي ينبغي عليّ فيها رفع ذراعي وانتظار الإبرة أحسّ –ولست

أدري لماذا– أحس بألم ثلجي يقبض على جانبي، وبالطبع يرجع جانب من هذا الألم إلى عدم الارتياح الناشئ عن رفع ذراعي، ولتعريض نفسي على هذا النحو الذي يجردني من الدفاع.

وغرس الإبرة على يد طبيب اعتدت عليه هو عمل فيه من الكآبة ما يكفي، من هنا فإن قيام طبيب غريب بغرسها يبدو أكثر إثارة للاضطراب، وفي بعض الأحيان إذا ما كان الطبيب مرتبكاً يحدث استرواح عفوي، يؤدي غالباً إلى وفاة المريض نتيجة لغياب الأوكسچين عن الرئتين. هكذا فحينما استعذت ذكرى دكتور سوجورو، دافعاً بذلك الوجه الرمادي المنتفخ خارج مصاريع نافذته، وقد غرقت الغرفة القابعة وراءه في ظلام كئيب، تلاشت رغبتي في الذهاب إلى عيادته.

ولكن أياً كان الأمر، فليس بمقدروك أن تحصر تفكيرك في نفسك طوال الوقت، فقد كان حفل زفاف شقيقة زوجتي سيقام في فوكوكا بجزيرة كيوشو بعد أسبوعين فحسب، ولما كانت زوجتي حاملاً ولا يمكنها القيام بالرحلة، فقد تعينّ عليّ الذهاب بدلاً منها، حيث توفي والدا شقيقة زوجتي، ولم يكن هناك أحد غيري ينوب عنها في مراسم الزفاف.

قلت لنفسي: ليكن، إحمل صورة أشعة إكس ولنذهب، لكنني فكرت طويلاً في «لنذهب» تلك، واستغرق تفكيري يومين آخرين أو ثلاثة. وفي هذه الأثناء زرت الحمام للمرة الأولى. لما كان اليوم هو السبت، فقد عدت إلى الدار من العمل في حوالي الثانية بعد الظهر.

هكذا مرت ناقلات عديدة فيما كنت أضرب في الطريق حتى أن غباراً رمادياً كساني من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ، وربما لأن الوقت كان مبكراً جداً لم يكن قد سبقني أحد باستثناء رجل واحد، كان رجلاً توحي ملامحه بالحنكة، وقد تمدد في الماء ممسكاً في استرخاء بحافة المغطس بكلتا يديه، وأراح ذقنه على الحافة. بعد أن نظر تجاهي بعض الوقت. قال:

– الماء جميل حقاً الآن. أليس كذلك؟

– ماذا؟

– الماء جميل حقاً الآن، أليس كذلك؟ إذا جئت متأخراً عن هذا الوقت ستجد أنه قد اتسخ على يد أبناء الفلاحين، بل إن أولئك الأوغاد الصغار يتبولون فيه، عليهم اللعنة.

بينما كنت عاكفاً على غسل ذراعيّ الناحلين وصدري في أحد الأركان دونما رغبة في اظهار نفسي، لاحظت أن هذا الرجل هو صاحب محطة الوقود، كان يرتدي دوماً زي عمل

أبيض، ويعالج المضخة، لذا لم أتعرفه حتى الآن. تناهى صوت بكاء الأطفال مقبلاً من القسم الخاص بالنساء في الحمام.

خرج من الماء في انتعاش حافل بالضجيج، بدا وجهه ماكر القسمات، مطلاً عبر مرآه الجدار:

– ليكن، دعنا نكمل استحمامنا!

ثم اقتعد الأرض، قلب الدلو الخشبي، وشرع في غسل ساقيه الطويلتين.

– هل أقمت في هذه المنطقة منذ وقت طويل؟ أحسب أنها فترة قصيرة؟

– منذ أسبوع، آمل أن نكون جيراناً طيبين.

– ماهو عملك؟

– أعمل لدى تاجر جملة يتعامل في المسامير.

– شركتك في طوكيو، أليس كذلك؟ واضطرارك للذهاب إلى طوكيو كل يوم يحملك آلاماً لا يحتملها إلاّ بغل فيما أحسب.

اختلست النظر إلى صدره الذي حمت الملابس الداخلية جلده الرقيق من الشمس، بدت ضلوعه بارزة هوناً، لكن هيكله العظمي وثيق التركيب خلع على جسده قوة خاصة. والرجال الهضيمون من أمثالي مصابون بمجنة الشعور المرير بالدونية، خاصة حينما يواجهون رجلاً قوي البنية. كانت هناك على كتفه الأيمن آثار جرح يمتد كاشفاً عن عرض يبلغ البوصتين أو نحو ذلك، ربما كان على ما يبدو نتيجة لحرق، فقد كان اللحم الملتوي يتخذ شكل البرعم الذاوي.

– يبدو أن زوجتك حامل.

– نعم.

– رأيتها تسير قرب المحطة منذ أيام، وبدا عليها أنها تعاني من آلام الحمل.

– هل هناك طبيب بالمنطقة؟

قلت لأتبين ما إذا كان هناك طبيب آخر إلى جوار دكتور سوجورو، حيث بدأت رئتي وحمل زوجتي يثقلان على كاهلي بصورة متزايدة.

– هناك دكتور سوجورو، وعيادته وراء الحمام مباشرة.

– وما رأيك به؟

– ليس سيئاً على الإطلاق وفقاً لما يرددونه عنه، لاينبس ببنت شفة، نمط مضحك من الرجال.

– مضحك؟

– لايضايقك بأتعابه على الإطلاق، وحتى إذا نسيتها فلن يتفوه بكلمة واحدة.

– ذهبت إلى هناك منذ أيام فوجدت نوافذ داره مغلقة.

– ربما كان ذلك راجعاً إلى أن زوجته أخذت الطفل ومضت إلى طوكيو، يقولون إنها كانت ممرضة.

– هل أقام هنا منذ مدة طويلة؟

– من؟

– الطبيب.

– لا أعتقد ذلك، وأحسب أنه جاء قبلي بقليل.

تدفق ماء رمادي قذر حول قدميه. فيما كان يكسو نفسه برغوة الصابون، راح كوعه الأيمن يتحرك قريباً من وجهه، اتخذ لحمه المتوهج بلون الدم في خشونته البريق اللامع الذي يميز ثعلب الماء تحت مزيج من رغوة الصابون والماء، فتسرب الحسد إلى أعماقي، وغدا الحرق الذي سبق أن تحدثت عنه من قبل على كتفه الأيمن شديد البياض، وقد خضله الماء.

– هل هذا حرق؟

– ماذا؟ هذا؟ إنه أثر لقذيفة هاون بالخنادق، حدث ذلك في الصين، وهبني الصينيون إياه جرحاً يستحق أن يفخر به المرء.

– أحسب أنه قد آلمك كثيراً؟

– آه، آلمني، ولم يؤلمني في الوقت نفسه، ما عليك إلاّ أن تفكر في قضيب حديد محمي حتى التوهج، ثم فجأة تلطم به، هذا هو الشعور الذي راودني، هل سبق تجنيدك؟

– آه، عند نهاية الحرب فقط، وسرحت تواً.

– آه، إذن فليست لديك فكرة عن صوت مدافع الهاون الصينية تلك. هوش! هوش! هوش! هكذا تقبل القذائف صافرة، كانت شيئاً مروعاً.

عدت بذاكرتي إلى فوج التدريب الذي التحقت به، في الغرف المعتمة المرتبة. لابدّ أن عدداً غير محدود من الرجال ماكري الملامح، شأن صاحب محطة الوقود، قد جلسوا هناك، وفيما كانوا يوبخوننا نحن المجندين، راحت أعينهم الضيقة القاسية تتألق بفرح لاتخطئه الأعين، ربما كان هؤلاء الرجال الآن بدورهم أصحاب محطات وقود في مكان ما.

– لكننا استمتعنا في الصين كذلك، وأتينا ما طاب لنفوسنا من أعمال مع النسوة، وكنا نقيد أي وغد يشكو إلى إحدى الأشجار، ونستخدمه هدفاً للتدريب على الرماية.

– من النساء؟

– كلا! من الرجال.

فيما كان يضع رغوة الصابون على رأسه، التفت نحوي، ولاحظ، للمرة الأولى فيما يبدو، صدري المسطح وذراعي الناحلين، فارستم على وجهه تعبير يخالجه الشك.

– ألست هضيماً للغاية؟ إن بمقدورك أن تطعن أحدهم بأحد هذين الذراعين، ما كان النجاح ليقدر لك كجندى، أما النوع الذي انتمي إليه...

توقف عن الحديث لحظة، أضاف قائلاً:

– إنني بالطبع لست الوحيد، فهناك واحد أو اثنان هنا من المجموعة التي قامت بنصيبيها في الصين، وبالإضافة لي هناك صاحب متجر الملابس الذي تعرفه، ألست تعرفه؟

ضحك فجأة، استطرد قائلاً:

– لقد خاض غمار الجحيم حقاً في نانكين، أظن أن ذلك الوغد كان من الشرطة العسكرية.

ندت عن مذياع في مكان ما أغنية شعبية يغنيها هيباري ميسورا، ومن القسم الخاص بالنساء في الحمام تناهى صوت بكاء الأطفال ثانية، جففت جسمي.

– طيب، عذراً، سأنصرف.

في غرفة الملابس كان رجل يواجهني بظهره يخلع قميصه. كان دكتور سوجورو. نظر

إلى طارفاً بعينيه، لكنه حول نظرته عني تواً. ترى هل تذكر الحادث الذي وقع قبل أيام أم لم يتذكره؟ سقطت أشعة شمس الأصيل على جبين الطبيب الذي غللته حبات العرق. فيما كنت بطريق عودتي للدار مررت عبر حقل البندورة، انخرطت الجنادب على كافة الجوانب في نقيق خشن مزعج أثقل على أذني. بينما كنت أسير قرب متجر ملابس الرجال توقفت فجأة حيث كنت أفكر فيما قاله لي صاحب محطة الوقود. كانت طبقة من الغبار تغطي الواجهة كعهدها، وداخل المتجر عكف رجل على العمل منحنياً فوق ماكينة حياكة، كانت عيناه غائرتين فيما برزت وجنتاه، ترى هل هذا هو الرجل الذي كان شرطياً عسكرياً في نانكين؟ عرفت بعد تأمل قليل أنني سبق أن شاهدت وجوهاً عديدة تحاكي وجهه كذلك؟ في غرف المستجدين بأفواج التدريب كان هذا النوع من وجوه الفلاحين سائداً بما فيه الكفاية بين المخضرمين في القتال.

- هل بوسعي مساعدتك؟

- لا، لا، إن الجو حار فحسب.

قلتها شاعراً بالارتباك، أضفت:

- الجو فظيع حقاً، أليس كذلك؟ هل هذا العمل وظيفة تؤديها؟

- لا، قالها ضاحكاً بدماثة غير متوقعة، أضاف:

- وظيفة أؤديها! هاهنا! هذا احتمال بعيد.

في الواجهة، ظلت الدمية تحمل ابتسامتها الغامضة، راحت العينان الزرقاوان تحدقان بثبات في الفراغ. بعد تجشم مثل هذا العناء للذهاب إلى حمام، عدت إلى الدار أتفصد عرقاً، جلست في الشرفة إلى جوار زوجتي، عانقتها، وقد تشابكت يداي على بطنها المتضخم.

- قولي لي، هل تعرفين شيئاً عن أبي الهول؟

- وماعساه أن يكون؟

- أتعرفين متجر ملابس الرجال ذاك الواقع إلى جوار حقل الحنطة، هناك دمية في الواجهة، حينما تغرب الشمس تتألق هناك، وعندما أرى تلك الابتسامة الواهنة الساخرة، لا أملك إلاّ التفكير في الصحراء المصرية وأبي الهول.

- لم لا تكف عن التفكير في الصحراء المصرية وتسرع بالذهاب إلى الطبيب؟

لما كانت زوجتي لم تدع مجالاً للجدال، فقد حملت صورة أشعة إكس وتوجهت إلى

عيادة دكتور سوجورو، كانت النوافذ مازالت موصدة وحذاء الطفل لايزال ملقى في الحديقة على نحو ما رجحت، ومأوى الكلب خاوياً كعهده، بدا جلياً أن الدكتور سوجورو يطهو طعامه بنفسه خلال غياب زوجته.

كانت داخلية الدار وغرفة الفحص كذلك تفوحان برائحة لاتوحى بالنظافة، أتراها كانت الروائح المتراكمة عن كل المرضى الذين سبقوني أم هي رائحة نوع ما من أنواع الأدوية؟ لم أستطع التحديد على وجه الدقة. كان الستار الأبيض المسدل على النافذة ممزقاً في منتصفه، واصفرّ نصفه تحت سياط الشمس، لاحظت باكتئاب أن هناك بقعة دم صغيرة على معطف دكتور سوجورو الأبيض، وفيما رقدت على السرير المقرقع، رفع صورة أشعة أكس أمام أنفه، وراح يدرسها طارفاً بعينيه.

– كان طبيبي الأخير يزودني بأربعمائة سنتيمتر مكعب من الهواء.

لم يرد دكتور سوجورو، تطلعت بنظرة ثابتة إليه، بينما كان يتناول زجاجة تحتوي إبرة الاسترواح الهوائي من أحد أدراج مكتبة ويفحص الثقب الموجود بطرفها، غرسها في الأنبوب المطاطي وأعد حقنة المخدر، راحت أصابعه الغليظة المكسوة بالشعر تتحرك كأنها ديدان القز، كانت هناك قذارة تكمن تحت أظافره. أمرني بصوت خفيض:

– إرفع ذراعيك!

راحت أصابعه تنقب في جنبي عن البقعة الواقعة بين عظمتي الضلوع، كان يتأكد من موضع حقن الإبرة. لف برود معدني ثلجي تلك اللمسة، أما ما هو أكثر من ذلك فإن هذه اللمسة فقد صحبها اقتدار مجرد من الطابع الشخصي ومن الشعور بالآخرين، بدا أنه يتعامل معي كما لو لم أكن مريضاً وإنما أحد حيوانات معمل التجارب.

فجأة أخذتني الرعدة النابعة من تلك الغريزة التي يتسم بها المريض، فرحت أحدث نفسي قائلاً: لم يكن الطبيب الآخر هكذا، وإنما كان يتمتع ببعض الدفء.

في هذه اللحظة عينها ولجت الإبرة جنبي، أحسست بها بصورة متميزة ترتاح بين الصدر وبين العظم الغشائي للضلع، كان أسلوب الطبيب الفني متميزاً.

– آه!

قلتها متنهداً في ارتياح.

لم يبد على دكتور سوجورو أنه سمع شيئاً، لكنه راح يحدق من النافذة، بدا أنه يفكر في

شيء آخر، لاعلاقة له بي أو بشؤوني، قال عنه صاحب محطة الوقود إنه «مطبق الشفتين، غريب قليلاً»، وقد كان دكتور سوجورو غريباً حقاً إلى حد ما.

قالت زوجتي:

– لاعلاقة اجتماعية له، هناك كثيرون من الأطباء على هذه الشاكلة.

– ... ورغم ذلك... فيا لتلك الطريقة التي غرس بها الإبرة، ليست هذه المهارة متاحة لطبيب ريفي، وأتساءل ما الذي بفعله بالإقامة في مكان كهذا.

قد لا يبدو غرس إبرة الاسترواح الهوائي شيئاً متميزاً، لكنني سمعت من طبيب مخضرم، اعتدت التردد على عيادته حينما كنت أقيم في كيودو، أن غرسها شيء بالغ الصعوبة.

– لايمكنك الوثوق بالأطباء المقيمين في القيام بهذا العمل، فغرس الإبرة في المكان الصحيح على وجه الدقه يحتاج إلى طبيب له باع طويل وخبرة أطول.

كان أحدهم قد أخبرني بأن هذا الطبيب المخضرم قد عمل طويلاً في مصحة لعلاج السل. وذات يوم قدم لى إيضاحاً مفصلاً للعملية بكاملها، فإذا كانت الإبرة جديدة. فلا مجال للشعور بالألم. ولكن غرس إبرة عتيقة ذات طرف لم يعد مدبباً تماماً في الرئة دون إحداث ألم وبسرعة، بالقوة المطلوبة على وجه الدقة هو أمر ضروري. وكما سبق لي القول من قبل، هناك احتمال لحدوث استرواح هوائي عفوي، وحتى إذا لم يحدث هذا فإن الإبرة إذا لم تتغلغل للبقعة الصحيحة بدفعة واحدة فإن المريض سيعاني ألماً مبرحاً منها، ومن تجربتي الشخصية فإن هذا الطبيب المخضرم نفسه في كيودو كانت الإبرة تنزلق منه مرة أو مرتين كل شهر، ويتعين عليه أن يسحبها ليعيد غرسها من جديد، وفي أوقات كهذه كان الألم بناصيتي كأنما فتح جنبي فتحاً.

لم يحدث هذا قط مع دكتور سوجورو، فبدفعة واحدة كان يغرس الإبرة سريعاً وفي ثقة في المكان الصحيح لتسكن هناك بأمان، لم أستشعر ألماً قط، فقد كان ينجز الأمر قبل أن أستطيع الانكماش، وإذا كان ماقاله لي الطبيب المخضرم في كيودو صحيحاً فقد بدا لي إذن أن هذا الطبيب ذا الوجه الرمادي المنتفخ قد اكتسب في مكان أو آخر قدراً يعتد به من المهارة الطبية. وإذا كان طبيباً قادراً على هذا النحو فما من حاجة تدعوه إلى الاستقرار في بقعة مهجورة كهذه، تفتقر لكافة السمات الجذابة، ومع ذلك فقد جاء إلى هنا، رحت أسائل نفسي لماذا؟

غير أني كنت رغم مهارته لاأزال أشعر بعدم الارتياح له، بل تجاوز الأمر عدم الارتياح إلى النفور، ففي كل مرة كنت أشعر فيها بهذه الأصابع الصلبة في ضلوعي بتلك اللمسة الباردة

المعدنية عصيّة الوصف، كانت تلم الغريزة غير المحددة وإن كانت قوية، وثيقة الجذور مع الحياة والشائعة بين المرضى جميعاً ترتجف داخلي، ظننت أنني أحسّ بهذا الشعور لالشيء إلاّ لأن حركة أصابعه كانت لها مشهد مجموعة من ديدان القز، لكن الأمر أكثر من هذا.

كان شهر قد مضى منذ انتقلنا إلى هنا، وعليّ في نهاية شهر سبتمبر أن أمضي إلى كيوشو لحضور حفل زفاف شقيقة زوجتي. تضخم بطن زوجتي إلى حد كبير، فبدا حملها بالغ الوضوح. غمغمت بسعادة متلمسة طية إحدى قطع ثياب الحمل بوجنتها.

– الجنين كبير الحجم، لذا قد يكون طفلة، لقد لطمتني لتوها الآن، هكذا تفعل في بعض الأحيان. كان صاحب محطة الوقود يسير مرتدياً زيّ العمل الأبيض كعهده أمام مضخاته، وكنت أحييه في طريقي إلى العمل، وأتوقف في بعض الأحيان نتبادل الحديث الذي لايدور حول موضوع بعينه. وفي الحمام لم أكن أقابله فحسب وإنما كذلك صاحب متجر ملابس الرجال، ولما كانت حالتي الصحية تتحسن فقد أحسست بأنني سعيد، فسرعان ما يولد لي طفل، ولي دار أملكها رغم صغرها. ربما لايتجاوز هذا ضرباً عادياً من السعادة، لكنني رحت أحدث نفسي متسائلاً عما قد يعيب هذا الضرب منها.

ومع ذلك فقد أثار دكتور سوجورو فضولي. ألم تعد زوجته بعد؟ كانت مصاريع النوافذ لاتزال موصدة كعهدها. هل حمل الكلب حذاء الطفل في الحديقة ومضى به إذا كان هناك كلب على الإطلاق؟ لا بدّ أنه اختفي في وقت أو آخر.

ذات يوم، بلغتني معلومات محدودة عنه، وقد حدث ذلك في المرة الخامسة التي ترددت فيها عليه للعلاج، كنت أنتظر دوري خارج غرفة الفحص، حينما عثرت في مجلة قديمة على برنامج حفل التخرج في كلية الطب بجامعة فوكوكا. ليس اسم سوجورو بالاسم الشائع، لذا لم يستغرق الأمر مني إلا لحظة لأشعر بالرضا لوصولي إلى اسم طبيبي ضمن قائمة الخريجين، أما ما كان مصادفة محضاً فهو أن حفل زفاف شقيقة زوجتي سيقام في فوكوكا في نهاية الشهر.

قلت لزوجتي:

– إن اللهجة تنتمي إلى فوكوكا بجزيرة كيوشو.

– أي لهجة؟

– لهجته، ففي اليوم الأول لذهابي إلى هناك حينما قال لي لا يستطيع مساعدتي دون صورة أشعة إكس لاحظت الطريقة التي نطق بها هذا القول.

لمّا كنت وزوجتي قد ولدنا في طوكيو، لم تكن لدينا فكرة عن إذا ما كانت هذه اللهجة تنتمي إلى غرب اليابان، ولكن بما ان تقليدي له بدا مضحكاً فقد انفجرنا معاً ضاحكين.

قال صاحب محطة الوقود متكهناً في الحمام:

– أراهن أن الزوجة قد هربت منه، على أية حال يقال أنه أحضر ممرضة أخرى.

– شخص مضحك حقاً.

– نعم، مضحك، لكن أموره تسير على ما يرام، لقد مرض طفلي في العام الماضي فعالجه، لم يطالبني بالأتعاب حتى الآن.

– من أي نوع من النساء كانت الزوجة التي يحتمل أن تكون قد هربت؟

– هي؟ شأن زوجها، بشرة سيئة، لم تطل بوجهها على الإطلاق وما كان بمقدورك أن تراها تتوجه إلى المحطة قط.

في كل مرة كنت أذهب فيها للعلاج كان دكتور سوجورو يلتزم الصمت ويوماً وراء الآخر كان الستار الممزق يزداد صفرة تحت أشعة الشمس، لكنه ترك على حاله. كان معظم المرضى من زوجات الفلاحين وأبنائهم، يجلسون على الدرج خارج الباب متصفحين الجرائد والمجلات العتيقة الموضوعة أمامهم، وينتظرون أدوارهم في صبر لاينفد، ولما لم تكن هناك ممرضة، فقد كان دكتور سوجورو نفسه يضطر إلى إعداد الدواء.

في إحدى أمسيات سبتمبر المثقلة بحر الصيف الخانق كنت أسير بلا هدف على الطريق الرئيسي، حينما تصادف أن لمحت دكتور سوجورو واقفاً إلى جوار الطريق ومعه عصا صغيرة، كان يحدق في واجهة العرض بمتجر ثياب الرجال، وحينما لاحظ اقترابي حول نظرته وواصل السير فجأة، عندما انحنيت محيياً لم يرد إلا بإيماءة. كانت الواجهة تكتسي بطبقة الغبار المعتادة، ولم يكن صاحب المتجر ظاهراً للعيان، بدت الدمية البيضاء ذات الرأس التي يفترض أنها صهباء وكأنها تحدق فيّ بابتسامتها الواهنة الساخرة، كان أبو الهول هذا هو ما راح دكتور سوجورو يحدق فيه بمثل هذه اللهفة.

في نهاية شهر سبتمبر توجهت إلى فوكوكا بجزيرة كيوشو عبر رحلة طويلة مرهقة بالقطار لحضور حفل زفاف شقيقة زوجتي، وكنت قبل رحيلي قد توجهت إلى عيادة دكتور سوجورو لتلقي العلاج لكني تكتمت أمر الرحلة عنه، فلا معنى لمناقشة أمر مع شخص لايكترث بالتفوه بما يمكن أن يكون رداً.

كانت شقيقة زوجتي قد اتخذت قراراً بالزواج ككل قصة حب مع شخص يعمل معها في المكتب نفسه في طوكيو، وكانت دار أسرته في فوكوكا، لذا قرر إقامة حفل الزفاف هناك، وسأكون بالنسبة لشقيقة زوجتي، التي لم يعد لها أحد آخر في الدنيا، القريب الوحيد الذي سيحضر الحفل، لذا شعرت بأنني أحمل وقراً لم أكن مؤهلاً لاحتماله.

اعتزمت قضاء الليلة في فوكوكا قبل عودتي إلى طوكيو، وكنت قد سمعت أنها مدينة تتخللها أنهار عديدة، لكن النهر الرئيسي منها فيما تبين لي لم يتجاوز كونه خندقاً مضبباً تلفه رائحة خانقة، شاهدت جثة كلب نافق وحزاماً مطاطاً يطفوان على سطحه، فكرت في رائحة حديقة دكتور سوجورو وغرفة الفحص الخاصة به. وجدت كذلك أن أبناء المدينة يتحدثون باللكنة ذاتها التي يتحدث بها دكتور سوجورو، لابد حين كان يدرس بكلية الطب هنا تأمل هذا النهر وسار في أرجاء هذه المدينة، كان ذلك درباً غريباً تسلكه أفكاري.

أقيم حفل الزفاف في مطعم صغير بقلب المدينة. كان زوج شقيقة زوجتي موظفاً قصير القامة، توحي ملامحه بطيبة القلب، كان مثلي واحداً من حشد سكان الضواحي الذين ينتظرون كل صباح على أرصفة محطة شينجوكو.، كم هو جميل أن يكون له ولد بعد فترة، وأن يستقر مع زوجته في ضاحية محدودة التكاليف في مكان ما ليستمتع بضرب من السعادة. ما من شيء خاص، مامن شيء يستحق الإطراء، لكنني فيما كنت أنظر إليهما راحت أفكاري تضرب دون أن تتخذ اتجاهاً بعينه، بدا لي أن ما هو عادي يمكن أن يمنح المرء أعظم سعادة.

جلس بجواري إلى المنضدة رجل قال إنه ابن عم العريس، كان بدورة قصير القامة، لكنه أكثر بدانة، قدم لي بطاقته، فلاحظت عليها ما يشير إلى أنه طبيب.

– هل تخرجت من جامعة فوكوكا؟

طرحت عليه هذا السؤال بالنظر إلى قلة الموضوعات التي يمكن أن نتحادث فيها، تصادف أنني فكرت في برنامج التخرج الذي تصادف أن اطلعت عليه في عيادة دكتور سوجورو، أضفت متسائلاً:

– هل تصادف أن عرفت طالب طب كان يدعى سوجورو يادكتور؟

– سوجورو، سوجورو...

قالها رفيقي وقد أمال رأسه إلى أحد الجوانب، فيما خضب قدح أو قدحان من الساكي وجهه بالحمرة، أضاف:

– تعني جيرو سوجورو؟

– بعينه.

– سوجورو، هل تعرفه؟

– إنه طبيبي، يعالجني من مرض بالرئة.

– آه...

راح يتفرس ملامحي للحظة، ثم قال:

– هكذا فهو في طوكيو الآن كما تقول، تصور!

– هل كنت صديقاً له في الكلية؟ أعني صديقاً للدكتور سوجورو؟

– لا، لقد كان... ربما تعلم وربما لاتعلم، ولكن على أى حال فإن ما حدث كان يحدث عادة في حالة كهذه.

خفض صوته، وشرع يحدثني بالقصة.

حينما انتهى الحفل، مضت شقيقة زوجتي وزوجها إلى المحطة. مضينا أقاربه وأنا إلى هناك لتوديعهما. كان المطر قد شرع في الانهمار على امتداد المدينة، وما أن رحل الزوجان حتى بدأ الجميع في الشعور بالارتباك. دعتني الأسرة للذهاب إلى مطعم معها، لكني قلت إنني متعب، وعدت إلى فندقي. لم يكن هناك كثيرون من النزلاء، وبعد أن أعد الخادم فراشي، جلست طويلاً متربعاً أمعن التفكير وأدخن سيجارة إثر الأخرى. بعد انزلاقي تحت غطاء الفراش الثقيل. لم يواتيني النوم، فواصلت التفكير فيما أخبرني به ابن عم العريس خلال الحفل عن دكتور سوجورو بمثل هذا الصوت المختلس المقاطع. كان بمقدوري سماع صوت انهمار المطر على السقف، ومن مكان ناء في الفندق تناهي صوت مجموعة من الخادمات اللاتي لاعمل لديهن، وقد انخرطن في الحديث والضحك.

لئن كنت قد غفوت قليلاً فسرعان ما استيقظت في الظلمة. راحت صورة دكتور سوجورو تترامى وتختفي مرة بعد أخرى، بوجهه الرمادي المنتفخ، وأصابعه الغليظة التي تحاكي ديدان القز، ومن جديد استشعرت اللمسة الباردة لهذه الأصابع على جانبي الأيمن.

في اليوم التالي، انهمر المزيد من المطر. في الأصيل، مضيت وسط انهماره إلى مقر إحدى الجرائد في المدينة.

– معذرة، لكني أتساءل عما إذا كنت أستطيع إلقاء نظرة على أعداد سابقة من

صحيفتكم. حدجتني فتاة مكتب الاستقبال بنظرة متشككة، لكنها اتصلت بالأرشيف لإبلاغ طلبي.

– ما هو موعد المقال الذي ترغب الرجوع إليه؟

– عقب الحرب مباشرة، كانت هناك محاكمة، أليس كذلك؟ حول تشريح الأحياء في كلية طب فوكوكا؟

– هل أنت مخول رسمياً بهذا؟

– لا، لاشيء من هذا.

أخيراً حصلت على التصريح المطلوب، وفي أحد أركان الأرشيف بالدور الثالث طالعت الأعداد السابقة من الصحيفة التي تغطي هذه الفترة لمدة ساعة تقريباً. كانت القضية تشمل هيئة تدريس كلية الطب خلال الحرب، فقد استخدم ثمانية أسرى من سلاح الجو الأمريكي لإجراء تجارب طبية، كان الهدف من هذه التجارب بصفة عامة هو الحصول على معلومات من نوعية كمية الدم التي يمكن للإنسان أن يفقدها ويظل على قيد الحياة، كمية الماء المالح التي يمكن للإنسان عندها أن يواصل الحياة مع استئصال أنسجة رئته، وقد شارك في عمليات تشريح الأحياء تلك إثنا عشر من العاملين في مجال الطب، من بينهم ممرضتان، وقد بدأت المحاكمة في فوكوكا، ولكنها نقلت فيما بعد إلى يوكوهاما، وقرب نهاية قائمة أسماء المتهمين وجدت اسم دكتور سوجورو. لم تكن المقالات تضم شيئاً عن دورة في التجارب، وقد انتحر استاذ الطب المسؤول عن التجارب في أول فرصة أتيحت له، وحكم على المتهمين الرئيسيين بمدد سجن طويلة، غير أن ثلاثة متهمين أفلتوا بأحكام مخففة مدتها سنتان، وكان دكتور سوجورو واحداً من المجموعة الأخيرة.

تطلعت من نافذة مقر الصحيفة إلى السحب، التي اكتست بلون مزيج متسخ من القطن والصوف، وتدلت خفيضة فوق المدينة. بين الحين والآخر كنت أرفع ناظري عن المقالات لأحدق في السماء المعتمة. غادرت مقر الصحيفة وتجولت في الشوارع، لطم المطر، المنساب رقيقاً مائلاً، وجهي. كانت العربات، الحافلات، الشاحنات تحدث الضجة ذاتها التي تحدثها في طوكيو. سارت فتيات شابات يرتدين معاطف واقية من المطر بألوان حمراء وزرقاء، وغيرها من الألوان المتدفقة بالحياة على الأرصفة التي ينهمر عليها المطر. تناهت من المقاهي موسيقى مرحة مدغدغة، كانت المطربة تشيمي ايري ستأتي قريباً إلى المدينة فيما يبدو، حيث كان وجهها بفمه المفتوح الضاحك يضفي لوناً مبهرجاً على واجهة إحدى دور السينما.

– إيه، أيها السيد! ما قولك في تذكرة ياناصيب؟ صاحت بهذه العبارة امرأة بأحد

الأبواب، وقد تغطى جسمها بميدعة طويلة.

أحسست بالتعب وببعض الضيق، فدلفت إلى إحدى المقاهي، وتناولت بعض القهوة وقطعة من الحلوى. راح آباء مع أطفالهم وشبان مع صديقاتهم يدخلون ويخرجون عبر الباب، رأيت من بينهم وجوهاً ضيقة مستطيلة ماكرة الملامح كوجه صاحب محطة الوقود، ووجوه مزارعين مربعة الفك، بارزة الوجنات كوجه صاحب متجر ملابس الرجال. ترى ما الذي يفعله صاحب محطة الوقود الآن في مثل هذا الوقت من النهار؟ أتراه في رداء عمله الأبيض يملأ خزان وقود شاحنة؟ ترى هل يعكف صاحب متجر ملابس الرجال على ماكينة الحياكة خلف واجهة متجره المتربة؟ حينما يفكر المرء في الأمر يجدهما كليهما رجلين اقترفا جريمة قتل في ماضيهما، هكذا فإنه حتى في ماتسوبارا الغريبة التي انتقلت إليها، وبغض النظر عن قلة حوانيتها ودورها، تعين عليّ أن أعرف رجلين خاضا تجربة قتل إنسان، وبمقدوري اعتبار دكتور سوجورو ثالثهما.

غير أن شيئاً ما لم أستطع فهمه، رحت أحدث نفسي كم هو غريب أنني لم أفكر حتى اليوم في هذا على الإطلاق، الآن رب الأسرة هذا الداخل من الباب ربما قتل خلال الحرب رجلاً أو اثنين، أما الآن فإن وجهه وهو يرتشف القهوة ويوبخ أطفاله ليس وجه رجل انتهى لتوه من جريمه قتل، وتماماً كما هو الحال مع واجهه العرض في ماتسوبارا الغربية التي تمر بها الشاحنات فإن غبار السنين يستقر على وجوهنا أيضاً.

غادرت المقهى، استقللت حافلة. كانت كلية طب بجامعة فوكوكا تقع عند المحطة الأخيرة في الخط. شرع مطر خفيف ينساب من جديد، وتقاطر الماء متساقطاً من الأشجار السامقة التي اصطفت صفوفاً منتظمة عبر الحرم الجامعى الفسيح.

سرعان ما عثرت على الجناح الذي يضم القسم الأول للجراحة حيث جرى تشريح الأحياء. تظاهرت بأنني أزور أحد المرضى. وصعدت إلى الطابق الثالث. تألف الجناح حتى هذا الطابق من العنابر كلية، وفي الدهاليز اختلطت رائحة السخام برائحة المطهر النفاذة. لا مجال للشك في الأمر، هذا هو ما سبق لي أن شممته في غرفة الفحص الخاصة بدكتور سوجورو، الرائحة ذاتها منبعثة من المصدر السام عينه.

لم يكن هناك أحد في غرفة العمليات، ورفعت منضدتان للعمليات إلى قرب حافة النافذة. أقعيت على الأرض، وظللت ساكناً لبعض الوقت، لم أدر لِمَ جئت عبر هذه المسافة كلها، رحت أحدث نفسي بأنه في مكان ما من هذه الغرفة المعتمة، وقبل سنوات كان لوجه دكتور سوجورو الرمادي المنتفخ مكانه الذي يحتله، فجأة أدركت بدهشة تبعث على الصدمة

أنني أردت رؤيته هنا.

شعرت بمقدم الصداع، فصعدت على السطح، بدت مدينة فوكاكا جاثمة أمامي كأنها حيوان رمادي هائل، وكان بمقدوري رؤية المحيط وراء المدينة، كان لون البحر أزرق متدفقاً بالحياة على نحو يؤلم العينين، وكان بمقدوري حتى على هذا البعد أن أشعر به يعشى بصري.

كان الخريف قد حل حينما عدت إلى طوكيو، وبالطبع لم أبلغ زوجتي بشيء، وفي المساء التالي مضيت إلى عيادة سوجورو، وبينما كان يثبت الإبرة بالأنبوبة المطاطية، قلت ملاحظاً وكأنما عرضاً:

- عدت لتوي من رحلة إلى فوكاكا.

تطلع دكتور سوجورو إلى وجهي للحظة لكن التعبير المكتئب المعتاد والمرتسم على وجهه ظل كعهده، عقب ذلك شرع في تلمس عظام ضلوعي بأصابعه، برزت بقعة الدم على معطفة الأبيض.

- أعطني حقنة مخدر من فضلك!

لم تكن هناك حاجة في المعتاد لاستخدام المخدر مع شخص مثلي تلقى هذا العلاج طوال عام تقريباً، لكنني أحسست بمس أصابعه البارد. رأيت لطخة الدم على معطفه، فصحت رغماً عني. بعد ذلك خطر لى أنه في يوم اجراء عمليات التشريح على الأحياء لابدّ أن الأسرى الأمريكيين قد توسلوا بالطريقة ذاتها، وهم على مائدة العمليات.

أحسست أن الغرفة آخذة في الإعتام أكثر من المعتاد، إما لأن الشمس قد غربت على وجه التقريب أو لأن الستائر كانت مسدلة، كان بمقدوري سماع صوت الهواء وهو يضخ إلى رئتي فيما كانت فقاقيعه تنساب عبر خزان الماء، غلل العرق جبيني.

حينما نزعت الإبرة مني شعرت بمد متميز من الارتياح، أدار دكتور سوجورو ظهره، وعكف على كتابة شيء ما على بطاقة، وطارفاً بعينه فجأة، شرع في الغمغمة بشيء ما بصوت خفيض متعب:

- ... لأنه ما كان بالوسع عمل شيء في ذلك الوقت، ما كان في الوسع عمل شيء . من الآن فصاعداً لست واثقاً على الإطلاق لو أني سرت في الطريق ذاته لربما قمت بالشيء عينه مرة ثانية، الشيء عينه...

غادرت عيادته، مضيت عبر الطريق مجتراً ساقي، امتد الطريق الرئيسي أمامي بالغ

الاستقامة، لم أستطع الحيلولة دون تفكيري في مدى امتداده، أقبلت شاحنة نحوي مثيرة سحائبها الكثيفة من الغبار، دلفت إلى الملجأ الذي قدمه لي متجر ثياب الرجال لأحتمي إلى أن ينجاب الغبار. كانت الدمية تواصل ابتسامتها المتألقة.

رحت أحدث نفسي قائلاً: «أربع أقدام في الصباح، قدمان في الظهيرة، وثلاث في المساء- هذا هو الإنسان، فكرت ثانية في لغز أبي الهول الذي كنت قد سمعت به في الطفولة، ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله الآن: أواصل الذهاب إلى دكتور سوجورو أم لا، هكذا رحت أتساءل.

(١)

- إلى أي موعد تغيرت جولة العجوز؟

- الثالثة والنصف.

- ألا يزال في المؤتمر؟

- بلى.

- آه، في أي عالم نحن هنا! الجميع يريد أن يصبح عميداً لكلية الطب.

أصدرت ريح فبراير زفيفاً عند النافذة المكسورة، تدلى الورق الذي لصق فوق الزجاج للحيلولة دون تناثره بتأثير انفجارات القنابل على استمرار الرياح في الهبوب ورسمها ما يوشك أن يكون وشماً على النافذة. كان المعمل رقم ٣ يقع إلى الجانب الشمالي من الجناح، حيث أنه رغم أن الوقت لم يتجاوز الثانية بعد الظهر بكثير كانت الغرفة معتمة وباردة، كأنما حل المساء.

نثر تودا على مكتبه بعض الجرائد، وراح يكشط فوقها كتلة من سكر العنب، مستخدماً مشرطاً قديماً، وبعد أن كشط قليلاً راح يجمع البلورات الشهياء في راحة يده، وباقتصاد شديد يلعقها.

بعد أن نثر سوجورو بعض النخامة الصفراء على شريحة زجاجية مستخدماً في ذلك قطعة من البلاتينيوم، جفف النخامة فوق موقد يغلب اللون الأزرق على لهبه، فملأت الرائحة الكريهة الأنوف.

– آه، ليس هناك ما يكفي من الفوشين الكربوني.

– ماذا؟

– الفوشين الكربوني ينفد.

كان سوجورو يستخدم في حديثه مع زميله الطبيب المقيم تودا بعض الكلمات من لهجة أوساكا، كانت تلك عادتهما منذ أصبحا زميلين في الكلية، وفي الماضي كانت تلك العادة رمزاً مباشراً لصداقتهما.

– نخامة من هذه؟

– السيدة العجوز.

قالها سوجورو وقد احمر وجهه، إذ كان بمقدوره أن يشعر بتودا ناقلاً نظرته المحدقة إليه، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة مرحة على شفتيه اللتين لاتزال آثار سكر العنب عليهما.

– هل هذا صحيح؟ لاتزال عاكفاً عليها؟ إيه؟

قالها تودا مصطنعاً الشعور بدهشة كبرى، أضاف:

– لم لاتكف عن متابعة هذا الأمر؟ إنك تعاني المزيد من المتاعب بسبب حالة الضمان الاجتماعى تلك.

– ليست هناك متاعب، لامتاعب على الإطلاق.

– أياً كان ما ستقوم به، فإنها بطة هالكة، أليست كذلك؟ ليس هذا إلا تضييعاً للحمض.

لكن سوجورو شرع، طارفاً بعينيه، في مزج النخامة، ولدى حرق نخامة السيدة العجوز باللهب تكوّن لها إطار بني اللون كبيضة مقلية. راح سوجورو يحدق في الشريحة الزجاجية، فذكّرته بذراعين ناحلتين مهترئتين كان لهما اللون البني ذاته. كان تودا محقاً، فالمرأة لن تعيش ما يتجاوز عشرة شهور. كل صباح ومنذ فترة طويلة، وحينما يقبل إلى العنبر ذي الرائحة الكريهة، كان يلاحظ أن النور يخفت تدريجياً في عيني المرأة العجوز وهي ترقد هناك على الفراش المتسخ. كانت مريضة لاذت بالهرب إلى فوكوكا حينما دمرت موجي في غارة بالقنابل آملة في أن تساعدها أختها، لكنها هناك قيل لها أن عائلة أختها أدرجت في قائمة المفقودين، ثم أرسلتها الشرطة إلى المستشفى الجامعي هنا كإحدى مريضات الضمان الاجتماعي، ومنذ مجيئها لم تفعل شيئاً غير الرقاد في عنبر الجناح رقم٣.

لما كان المرض قد أكل نصف رئتيها لم يكن هناك سبيل لانقاذها، ومنذ وقت طويل تخلى العجوز دكتور هاشيموتو عن كل أمل.

– أعتقد أن هناك فرصة لعمل شيء.

– عمل شيء؟

قالها تودا منفجراً بلهجة تشي بالضيق، أضاف:

– كف عن هذه العاطفية! أتفعل شيئاً لمريضة واحدة ثم ماذا؟ أنظر! إن العنابر والغرف الخاصة مليئة بالأوغاد الفقراء الذين ليست أمامهم فرصة، فلم هذا الافتتان بسيدة واحدة؟

– لست مفتوناً بها.

– أحسب أنها تذكرك بأمك؟

– لا، إطلاقاً.

– آه، أي فتى مهذب أنت! إن ذهنك يسير في المجرى ذاته الذي تسير فيه أذهان طالبات التمريض هنا.

تضرج وجه سوجورو بالحمرة رغماً عنه، كأنما كشف النقاب عن سر حميم كان يخفيه، وألقى بمظهر من أخذ به الضيق الشريحة الزجاجية إلى خلفية الرف، لم يدر مدى صدق توصيف تودا للأمر «ذلك لأنها مريضتي الأولى» قالها محدثاً نفسه لكنه لايزال على شعوره بالارتباك. أضاف في حواره مع نفسه: «لا أحب رؤيتها هناك كل صباح في العنبر بشعرها المصفر ذاك، إن مجرد رؤية يديها هاتين اللتين تحاكيان ساقي فروج هي أمر كريه بما فيه الكفاية». كان الوصول إلى الاعتراف عند هذا الحد مؤلماً. أحس بالحافة الحادة القاطعة لسخرية تودا، كان تودا قد قال إنه لا مجال للشفقة عند طبيب في عالم كهذا، لأنها لن تفيد أحداً على الإطلاق، بل في الحق قد تضر.

– سيخرج الجميع اليوم.

قالها رفيقه، جامعاً سكر العنب في قطعة من الورق، وواضعاً إياها في مكتبه، أضاف قائلاً:

– إن الوغد البائس الذي لايلقى حتفه في المستشفي يحصل كل ليلة على فرصته في أن يموت خلال غارة جوية، فما معنى الاشفاق إذن على سيدة عجوز واحدة؟ خير لك أن

تفكر في أسلوب جديد لعلاج السل.

التقط تودا معطفة الأبيض من شماعة الجدار، منح سوجورو ابتسامة أخوية صادرة عن أخ أكبر وحافلة باللوم، خرج من الغرفة حاملاً المعطف على ذراعه.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بالفعل، وبدا من الضوضاء أن فترة الهدوء التي تسود بعد تناول طعام الغداء قد انتهت، ومن جديد رددت الدهاليز أصداء ضجيج الممرضات وهن يسرعن جيئة وذهاباً. عكف المرضى الذين يقومون بطهي طعامهم بأنفسهم على الأحواض يغسلون الأوعية. شكلت النافذة المكسورة إطاراً لحرم الكلية فيما هو ينظر عبرها، استطاع أن يرى سيارة ترقى وئيدة الطريق القادم من المدينة، توقفت السيارة أمام البوابة الرئيسية بقسم الجراحة الثاني، وصعد إليها رجل قصير بدين يرتدي ثياباً مدنية يصحبه طالب طب تحت التدريب بكلية الضباط. ما أن أغلق الباب حتى شرعت السيارة في السير وانطلقت مسرعة هابطة الطريق الرمادي، فغابت سريعاً عن الأنظار. تضاربت هذه الحركة الحادة في الحرم الجامعي المهجور في هذا الوقت المتأخر من بعد الظهر بصورة يقينية مع المعمل المعتم، وغرف المستشفى المهلهلة والمرضى الذين يرقدون فيها، كانت تشابه تجلياً من عالم آخر.

حدث سوجورو نفسه قائلاً «ذلك كان دكتور كانجو والطبيب المقيم كوبوري فيما أحسب، لابدّ إذن أن المؤتمر قد انتهى»، ألقت به هذه الفكرة في غيابات المزيد من الكآبة، فراح يحدث نفسه مرة أخرى: «تعني المؤتمرات بالنسبة لنا صداعاً دائماً، لسوف يفقس العجوز شيئاً جديداً لنا مرة أخرى».

منذ شهر انهار عميد كلية الطب دكتور أوسوجي مصاباً بنزيف في المخ، وقد حدث ذلك في مؤتمر للضباط الأطباء التابعين للقيادة الغربية ومسؤولي وزارة التعليم، ففي منتصف أحد الاجتماعات نهض العجوز مترنحاً قليلاً ومضى إلى المرحاض، بعد لحظات قلائل دوى صوت سقوط جسم ثقيل، وسارع الجميع ليجدوه مقتعداً الأرض، وقد مال إلى الحائط وانقلب وجهه إلى أعلى، وأمسك بسلسلة تيار الماء المنظف في عناد.

تذكر سوجورو الاحتفال الجنائزي الذي أقيم في حرم كلية الطب، كان أصيلاً بارداً معتماً، وأثارت الريح التي هبت من البحر غباراً رمادياً، وتناثرت قطع من أوراق الجرائد على الأرض، فتحولت إلى دوامات صغيرة، وجعلت المظلة المقامة للجنازة ترفرف بشدة. أمام المظلة اصطفت مقاعد خصصت لكبار ضباط القيادة الغربية من ذوي الشخصيات المتصلبة، الذين جلسوا وقد مدوا سيقانهم في صلف، وأمسكت أكفهم التي كستها القفازات البيضاء بمقابض سيوفهم، وفي مقابلهم جلس أعضاء هيئة التدريس بكلية الطب، وربما يرجع المظهر البائس الذي ظهروا به إلى الملابس المدنية التي كانوا يرتدونها، لكنهم على أية حال كانوا يحملون

على ملامحهم تعبيرات تشي بالمرارة والإرهاق، وبدوا متعبين بائسين.

ألقى ضابط بخطاب متطاول حد السأم أمام صورة فوتوغرافية للمتوفي جسدت لطلاب الطب كل ظلال الفروق الدقيقة لطريق الولاء الحق الذي كان عليهم بدورهم أن يسلكوه.

استطاع سوجورو، وإن لم يتجاوز كونه طبيباً مقيماً، من خلال المشاهدة اليومية لوجه العجوز دكتور هاشيموتو الذي يعلوه تعبير غضوب أن يتلمس الاهتمام الممزوج بالقلق الذي يسيطر على كبار الأطباء الدائرين في فلك حول مقعد عميد كلية الطب الشاغر، ومؤخراً كان العجوز على غير المعتاد خلال جولات الفحص التي يقوم بها في المناسبات المماثلة حاداً مع مساعديه، ومعجلاً بتوجيه اللوم إلى مرضى الضمان الاجتماعي.

كان الجانب الأعظم من كلية الطب على نحو ما عبر تودا واقعاً تحت تأثير دكتور كاندو كبير الجراحين في القسم الثاني للجراحة. ومن وجهة نظر السن والخبرة في إطار المستشفى كان عجوز تودا وسوجورو أي دكتور هاشيموتو بكل المعايير يمثل الشخص الذي ينبغي منطقياً اختياره لشغل منصب عميد كلية الطب، غير أن نشاط الجناح المناصر لكاندو جعل التيقن من النتيجة أقل وضوحاً. عكف أعضاء هذا الجناح منذ بعض الوقت على تدعيم موقفهم من خلال توحيد الصفوف مع القيادة الغربية في فوكوكا، وقد كان تودا بدوره هو مصدر هذه الرواية التي تقول أن دكتور كاندو قد اتفق سراً مع الجيش على تخصيص جناحين من المستشفي لرعاية الجنود الجرحى إذا ما أصبح عميداً للكلية. وكان الرجل الذي عمل كضابط اتصال لا يعرف السأم بين كاندو والعسكريين هو الطبيب المقيم كوبوري الذي كان يعمل محاضراً بالقسم الثاني للجراحة.

لم يكن طبيب مقيم مثل سوجورو يعمل عند المستويات الدنيا ليستطيع تفهم كل جوانب الوضع المعقد في إطار الجامعة، وإن كان قد فهم جانباً من الموقف، فإنه لم يكن يميل بأي شكل للاعتقاد بأن ما سيسفر عنه هذا الموقف سيكون له أثر عميق على مستقبله الخاص.

راح يحدث نفسه قائلاً: ليس قدري أن أكون رجلاً عظيماً، هذا من شأن دكتور آساي أو تودا، سوف يمكثان هنا في الجامعة، أما أنا فسأمضي إلى مصح في الجبال بمكان ما، وأعمل في علاج السل، سيكون هذا أمراً طيباً بما فيه الكفاية، سرعان ما أجند وأغادر هذا المكان.

في الصباح الباكر، راحت سيارات زيتونية اللون تضرب إلى القتام توالي بلا انتهاء التوقف أمام مدخل القسم الثاني للجراحة. فتح طالبان متخصصان في الطب من كلية الضباط، يضعان علامات خضراء على سترتي زيهما الرسمي، والسيفان اللذان لم يعتادا عليهما يقرقعان لدى

ارتطامهما بحذائيهما العسكريين، باب إحدى السيارات، فنهض دكتور كاندو القصير البدين مصطنعاً الجدية البالغة. كان هذا المشهد كفيلاً بإلقاء سوجورو في غابات إحباط عميق، فها هنا يكمن مصدر ضيق العجوز وقسوته المتغطرسة خلال جولاته بالعنابر.

في هذا الأصيل أيضاً كان المزاج النفسي للعجوز مصدراً لقلق سوجورو وحينما حل موعد جولة الثالثة والنصف في العنابر، وقف خارج مكتب كبير الجراحين في انتظار العجوز والآنسة أوبا كبيرة الممرضات. وكان معه تودا وآساي، وهو طبيب مقيم آخر. التفت سوجورو طارفاً بعينيه ناحية آساي، الذي كانت عويناته التي لايحدها إطار تتألق، وراح يتصفح حزمة من الجداول والرسوم البيانية، وسأل في صوت خافت:

– ترى ما الذي دار حول المؤتمر؟

– لست أدري.

قالها آساي محدقاً في سوجورو، كأنما يقول إن طبيباً مقيماً فحسب لاينبغي أن يدس أنفه في شؤون كلية الطب، أضاف:

– بالمناسبة ياصديقي فإني لازلت في انتظار ذلك التقرير عن السائل المعوي لميتسو آبي، ولو أن العجوز سأل عنه فماذا يكون الأمر أذن؟

كان هذا الطبيب المقيم قد عاد لتوه إلى الجامعة كضابط احتياط، واستغل الفرصة التي أتاحها له الموقف لتدعيم مركزه في القسم الأول للجراحة. كان العسكريون يبتلعون الأطباء المقيمين والمحاضرين الشبان تاركين المعامل خاوية على عروشها، وفي مثل هذه الظروف كان من المعقول أن يدعم دكتور آساي مركزه، وتقول شائعة رائجة في المستشفي إنه خطب ابنة شقيقة العجوز.

حاول سوجورو متلعثماً الدفاع عن نفسه، لكن الآخر أشاح بوجهه الذي علته امارات الضيق بعيداً، وشرع من جديد في التفحص الشاق للجداول والخرائط.

كانت الساعة حوالي الرابعة وأشعة الشمس الشاحبة تتلاشى من الدهاليز، أخيراً لاح العجوز وبصحبته كبيرة الممرضات أوبا التي تعمل سكرتيرة له من داخل المكتب، بدا عليهما الإرهاق الشديد. كانت ربطة عنق العجوز الخضراء منحرفة جانباً أعلى سترته البيضاء، لاح شعره الفضي المرجّل بعناية عادة مبللاً بالعرق، والتصقت شعرة أو اثنتان على جبينه، ومنذ أسبوعين فحسب كان أمراً لا موضع للتفكير فيه.

تذكر سوجورو أن العجوز كان قد وقع في حب امرأة ألمانية، أصبحت الآن زوجته، حينما كان طالباً في أوروبا، وراح يتأمل في تعاسة مغمغماً لنفسه: لن يحدث شيء كهذا لفتى ريفي مثلي.

- إنه عصبي المزاج اليوم أيضاً.

همس بها تودا إلى سوجورو فيما كانا يسيران وراء العجوز عبر الدهليز، وكان العجوز قد التزم الصمت التام، أضاف تودا:

- هل فحصت السائل المعوي لميتسو آبي حقاً؟

- طيب، كنت بسبيلي إلى القيام بهذا ولكن...

قالها سوجورو في معرض الرد متجهماً، أضاف:

- عليك أن تستخدم الأنبوبة معها، الأمر الذي يؤلمها كثيراً، ذلك مثير للإشفاق حقاً.

كان هناك بعض مرضى السل ممن يصرون على أنهم لايكتمون في صدورهم بلغماً، وكانت ميتسو آبي واحدة من هؤلاء، أما في الواقع فقد كانوا يبلعون بلغمهم مع لعابهم، وكان من المتعين إزالته عن طريق أنبوب مطاطي يغرس في المعدة وقبل ثلاثة أيام أجرى سوجورو هذا العلاج للمرأة فانفجرت باكية، وتقيأت. قال تودا هازّاً كتفيه:

- لم تستطع القيام بالأمر، أليس كذلك؟

أضاف:

- طيب، هكذا كان الحال، وأذا سأل العجوز فقل له أي شيء، أعطه رقم تجنيدك أو شيئاً من هذا القبيل.

بدأت جولات التفقد في العنابر، كان ضوء خافت فحسب يتأرجح في النوافذ، في هذا الأصيل القصير من فبراير حينما دخل خمستهم أي العجوز في معطفه الأبيض، دكتور آساي، كبيرة الممرضات أوبا، تودا، وسوجورو العنبر. أوقدت الممرضة المسؤولة المصابيح التي أحيطت بلون قاتم وفقاً لتعليمات تقييد الإضاءة. قفز العديد من المرضى المرتبكين إلى أسرتهم مسرعين، وشرعوا في إصلاح شأنهم واضعين أيديهم على ركبهم. كانت الرائحة التي تفوح في العنبر غير مألوفة، فمؤخراً عمد الكثيرون من المرضى إلى طهي طعامهم بأنفسهم، وهكذا، اختلطت رائحة احتراق الخشب برائحة الأغطية القذرة، وأوعية البول الموضوعة تحت الأسرة لتشكل في مجموعها رائحة كريهة موحدة تدفقت إلى الدهليز.

لاحظ دكتور سوجورو أن التعبيرات المرتسمة على وجوه المرضى تختلف تماماً في حالة دخوله العنبر وحده عنها في حالة دخوله بصحبة العجوز، فحينما يقبل وحيداً يبتسمون بمكر مطلين من أسرتهم المهلهلة، ويشكون من العديد من المظالم متوسلين له: دكتور سوجورو هل لى في بعض من دواء السعال، فليس بمقدوري النوم وهذا السعال يطاردني، دكتور، هل أستطيع أخذ بعض أقراص الكالسيوم؟ كان سوجورو يعلم جلية أمرهم، فقد كانوا يختزنون ما يستطيعون انتزاعه منه سراً ويستخدمونه في المقايضة بغية تدعيم النصيب الهزيل من البطاطس والبقول الذي كان يشكل طعامهم، وكان هناك البعض ممن يقومون بصفة خاصة في أوقات أزمات الطعام القاسية بتعاطي العقاقير المسكنة.

ولكن حينما يدخل العجوز العنبر مرة كل أسبوع، وقد التف حوله الأطباء المقيمون وطلاب الطب، يسارع المرضى بجعل أنفسهم غير ظاهرين للعيان قدر الإمكان، يقوم آساي بتسليم سجل قياس درجة الحرارة الموضوع في نهاية الفراش إلى العجوز، فينكمش المريض، وقد ضاقت عيناه وأفعمتا بؤساً أمام هؤلاء الرجال كأنه ينتظر حكماً بإدانته، يحاول المرضى بائسين إخفاء ما بهم إذا ما تصاعدت الحمى أو نوبات السعال إلى درجة أكثر قسوة، يجلسون وقد تهدلت أكتافهم واضعين أيديهم على ركبهم آملين في الإفلات من تمحيص هؤلاء الأطباء المخيفين بأسرع ما يمكن.

أمر آساي أحد الرجال قائلاً:

– إفتح سترتك، تقلب على معدتك، لايزال التدفق على حاله، ولكن الصديد شرع في الخروج من الأذن.

ولكن العجوز، أمسك بسجل المريض في يده، بدا شارداً، كان ضوء العنبر معتماً، ولمّا كان يكترث بوضع عويناته فلم يكن من المحتمل أن بمقدوره تبين ما يضمه السجل.

سأل العجوز في اكتئاب:

– حمى؟

– منذ بدأ الألم في الأذن ارتفعت الدرجة إلى مائة.

– إنها لم تعد تؤلمني يادكتور!

قالها المريض متوسط العمر الذي كان صدره الهزيل ظاهراً من خلال سترته البالية وقد لوى وجهه غير الحليق في احتجاج دامع على وجه التقريب، أضاف قائلاً: إنها لاتؤلمني على الإطلاق. كانت الأعراض واضحة بما فيه الكفاية، فهناك نتوء بارز قرب الأذن اليمنى ناتج عن

تورم الغدد الليمفاوية، ضغط العجوز ماداً اليد التي أمسك بها سيجارته بأصبع طويل أبيض بشدة على الورم فانكمش المريض كاتماً صرخة ألم، وقال:

– إنها لاشيء يادكتور.

– هذا ما تقوله أنت، أليس كذلك؟

– سأكون على مايرام يادكتور، أليس كذلك؟

دون أن يفوه بكلمة انتقل العجوز إلى الفراش التالي، وفيما كان سوجورو يسير وراء تودا وكبيرة الممرضات أوبا، سمع آساي خلفه يهمس بصوت مهدئ، بينما يمرر قلمه على سجل درجات الحرارة:

– لاتقلق الآن سنعطيك بعض المهدئات.

لم يكن العجوز عصبي المزاج اليوم على نحو ما توقع سوجورو من قبل، فبدلاً من الحدة، كان الناظر إليه يخرج بانطباع قوامه أنه مشغول بشيء آخر تماماً. بدا فيما يمسك بسجل تطورات حالة حمى، أو يضع كفه على غطاء مريض، وكأنه لايلاحظ الرماد المتساقط من سيجارته التي أمسكها بأصبعيه بديعي التكوين، كان يقف أمام فراش كل مريض ودون أن يأتي حتى بإيماءة ينتقل إلى الفراش التالي. تنفس سوجورو الصعداء، فمع وجود العجوز في هذا المناخ النفسي لن تصدر عنه كلمات تأنيب حول تقرير السائل المعوي لمتسو آبي.

في الخارج شرعت كتلة من ضباب المغيب رمادية اللون تتدفق زاحفة نحو المستشفى. ومن بيوت الكلاب النائية، حيث كانت الكلاب المستخدمة في التجارب تحفظ، تناهى نباح ملح يوحي بالجوع. ألقت المصابيح الكهربائية، التي لفتها ظلال تقييد الإضاءة، ضوءاً واهناً على المناطق المحيطة بها فحسب. تطلع سوجورو إلى البحر الذي بدا معتكفاً وراء الضباب الرمادي، فلم تكن كلية الطب بعيدة عن المحيط.

انتهت الفحوص، لكن المرضى كانوا جالسين في شعور بالواجب على أسرتهم ونظرتهم الخائفة تتابع تحركات الأطباء، وفي الضوء غير المتوازن ارتمت ظلالهم الممتدة على نحو غريب على الجدارن الواقعة خلفهم، وفي أحد الأركان انخرطت امرأة لم تستطع مزيداً من التماسك في نوبة سعال عنيفة حجبتها بكفيها.

– ليكن، هذا أمر طيب بما فيه الكفاية.

قالها العجوز وبصوت شفّه الإرهاق، ونحى جانباً سجل درجات الحرارة الذي كان آساي

قد عرضه عليه، أضاف قائلاً:

– ليس هناك مرضى يعانون من أزمات، أليس كذلك يا آساي؟

– أنت متعب ياسيدي. لم تعتبر أن عمل اليوم قد اكتمل؟

ابتسم آساي، وقد تغضن وجهه بتأثير القلق، ابتسامة توحي بولاء لا مثيل له. وقف تودا قريباً في ضيق، وقد انحشرت يداه في جيبي معطفه.

– هناك شيء واحد.

قالها آساي متلفتاً فجأة نحو سوجورو، وقد بدأ التعمد في صوته جلياً.

أضاف:

– لقد كان سوجورو يفحص إحدى المريضات.

– من؟

– حالة المرأة التابعة للضمان الاجتماعي هنا.

ما إن سمعت السيدة العجوز هذا وهي جالسة على فراشها المهلهل بصورة تفوق المألوف قرب مدخل العنبر حتى ارتجفت بعنف، وأمسكت بشدة بباطنية عسكرية عتيقة، أحكمت لفها حول جسدها.

– كل شيء على مايرام، ما عليك إلا الرقاد في هدوء!

كالعهد به تحدث آساي إلى المريضة بنبرات صوته المهدئة، وفيما هو يتحدث دفع بطرف حذائه بمهارة وعاء الأرز المنبعج الخاص بالسيدة العجوز، والذي كان قد سقط على الأرض.

– إن سوجورو يعرف بنفسه أن ليس هناك أمل، لكنه تراوده فكرة عن إجراء عملية.

– آه.

بدا صوت العجوز فاتراً، ولاح جلياً أن ليس لديه مزيد من الاهتمام الفضول.

– إنها فرصة طيبة، هناك منطقتان مصابتان في الرئة اليسرى، وهناك منطقة تخلل في الرئة اليمنى، هكذا فإن الفكرة ستكون إجراء عملية تجريبية في الرئتين معاً.

حدقت السيدة العجوز أمامها، ممسكة في تشبث بطرف البطانية ضامة إياه إلى صدرها، وقد أزعجها وجه سوجورو المتوتر مشدود الملامح. لم يكن الضوء يسقط مباشرة على فراشها، وبدا أنها تنتهز فرصة الظل المعتم لتخفي نفسها متضائلة بجسدها قدر الإمكان، فأمسكت أنفاسها، وراحت تومئ برأسها متعذرة.

– قال دكتور شيباتا إنه يود يقيناً لو قام بمحاولة.

– آه.

ولذا فإنني أكلف سوجورو بالقيام بالفحص المبدئي، وبعد ذلك سيكون الأمر لك ياسيدي! التفت آساي إلى سوجورو وراءه وأضاف:

– أكل شيء على مايرام؟

نظر سوجورو مناشداً إلى كبيرة الممرضات أوبا وتودا، ولكن التعبير المرتسم على ملامح أوبا كان متصلباً مثل تعبير قناع نوح، أما تودا فقد التفت كعهده بعيداً.

فقال آساي ملحاً بلا هوادة:

– هل تقوم بهذا يا سوجورو؟

– نعم.

ردّ سوجورو، طارفاً بعينيه، بصوت واهن.

بعد خروج العجوز من العنبر، استند سوجورو في إعياء إلى الجدار، وتنفس الصعداء. كانت السيدة العجوز، وهي لاتزال مكتومة في جانب من فراشها، وممسكة بباطنيتها، تنظر إليه. لم تكن فرص خروج المرضى هنا أحياء من عملية جراحية تتجاوز خمسة في المائة. أضف إلى ذلك أنه في تاريخ كلية الطب بكامله لم تحدث إلاّ عمليتان جراحتيان أجريتا بنجاح لمرضى مصابين بالرئتين معاً، أما في نسبة الخمسة والتسعين في المائة الباقية من مثل هذه العمليات فقد كانت النتيجة وفاة المريضة، ولكن يقيناً وسواء أجريت أم لا، فإنها كانت ستلقى حتفها من جراء الضعف المحض.

تذكر سوجورو تعليق تودا المرير الذي قاله قبل قليل: «سيمضي الجميع إلى الخارج اليوم، والوغد البائس الذي لايلقى حتفه في المستشفي يحظى بفرصته كل ليلة في أن يموت خلال غارة جوية». بعد انتهاء الفحوص تردّدَ صوت سعال عميق لبعض الوقت في العنبر، زحف

المرضى إلى أسرتهم ومنها، كأنهم خفافيش ترفرف بأجنحتها.

شعر سوجورو برائحة العنبر المقيتة الطاغية، وحدث نفسه في فتور قائلاً إنه إذا كان لموت البشر رائحة، فإنها هذه الرائحة بعينها.

(٢)

دون شك كان هذا هو الوقت الذي يخرج فيه الجميع، وإذا لم يلفظ رجل أنفاسه الأخيرة في المستشفي فربما كان حرياً أن يلقى حتفه في غارة جوية. كانت كلية الطب على بعد خمسة أميال في ريف المدينة، بعيداً عن فوكوكا ذاتها، لهذا فلم يتعرضوا لأي هجمات مباشرة من الجو، ومع ذلك كان احتمال القصف قائماً في أي لحظة. كانت الأجنحة القديمة من المستشفى والتي شيدت من الخشب قد تركت على حالها، ولكن المبنى الرئيسي المقام من الأسمنت والحديد المسلح، ومبنى معمل الأبحاث قد طلي بالقار، وإذا أطل امرؤ من سطح المبنى الرئيسي على المدينة الواقعة عند السفح، لكان بوسعه أن يرى أن فوكوكا تتقلص يوماً بعد آخر، وإن كان أكثر دقّة أن يقول المرء لدى تفكيره في الأمر، إنه في كل يوم تتسع الصحراء البنية التي يشكلها الجزء المحترق من المدينة وسواء كانت الريح تهب أم لا فقد كان الرماد ينبعث مدوياً من هذه الصحراء البنية، وكان بعض هذه الدوامات يتلاعب حول قوقعة متجر فوكيا الجوفاء الذي خلب لب الفتى الريفي سوجورو قبل سنوات، وما كان يهم ما إذا دوّى بالغارة من عدمه فمن مكان ما في السماء الشتوية الخفيضة المظلمة الضاربة إلى لون الرصاص يتردد صدى كئيباً مقعقع وغالباً ما يصحبه صوت متقطع مفاجئ كأنه صوت غلال تطحن، وفي العام الماضي وحينما قصف حي تشوشو بقوة، والتهمت النار منطقة باكون بكاملها، سادت موجة من الفزع بين المرضى والطلاب، أما الآن فلم يعد أحد يسأل أي حي احترق مؤخراً، ولم يعد أحد يبدي اهتماماً ما إذا كان الناس بقوا على قيد الحياة أو لقوا حتفهم، وانتشر طلاب الطب غالباً على امتداد المدينة، وقد أنيط بهم مدّ يد العون إلى المحطات أو المصانع، وكان سوجورو بدوره سيرسل عما قريب إلى مكان ما ليمضي فترة خدمته المؤقتة.

كان بوسع المرء أن يرى إلى غربي كلية الطب المحيط مترامياً، وحينما كان سوجورو بصعد إلى السطح كان يتطلع إلى البحر في بعض الأحيان. كان تألقه الأزرق يبهر العين على نحو مؤلم، وفي أحيان أخرى كان سطحه المعتم يبدو مذعناً ومكتئباً، وعندئذ كان سوجورو ينسى إلى حد ما الحرب والمستشفى ومعدته الخاوية. كانت ألوان البحر المتقلبة تثير عديداً من

أحلام اليقظة عنده، فإذا ما انتهت الحرب فسيكون بمقدوره شأن العجوز الذهاب إلى ألمانيا للدراسة، وخوض غمار الحب مع فتاة هناك، وإذا كان هذا أمراً عسيراً فليكن، وليعش حياة عادية، ما كان الأمر ليهم، أن يمضي إلى بلدة صغيرة في مكان ما، أن يكون له مستشفى صغير، يتزوج ابنة أحد وجهاء المدينة، فسيكون هذا أمراً مناسباً كذلك، وإذا ما فعل هذا فسيتمكن من رعاية مرضاه الذين يقيمون في ايتوجيما بسهولة، وراح يحدث نفسه بأن العادي من الأمور هو أفضلها.

لم يكن سوجورو على النقيض من تودا في أيام الدراسة في الكلية يتذوق الروايات والقصائد، تذكر قصيدة واحدة فحسب من تلك التي علّمه تودا إياها، وذات يوم فيما كان يتطلع إلى البحر في إحدى حالاته المتألقة بالزرقة، وجد و يا للغرابة هذه القصيدة:

حينما تمضي السحب مثل الخراف

عندما تدوّم السحب كالبخار

يبدو نثارك أيتها السماء أشهب

أشهب مثلما نهيرات من قطن

«يبدو نثارك أيتها السماء أشهب، أشهب مثلما نهيرات من قطن»، لماذا يغلب مزاج حزين على سوجورو حين يردد هذه المقطوعة لنفسه وخاصة في الأسابيع الأخيرة، منذ بدأ إجراء فحوصات ما قبل العملية للسيدة العجوز، كان يصعد غالباً إلى السطح ويفكر في هذه القصيدة.

حينما كانت عملية جراحية تتضمن التغلغل عبر العظام بالمشارط، كان من الضروري مسبقاً تحديد حالة المريض الجسدية على وجه الدقة، وقد أسند آساي هذا العمل إلى سوجورو الذي تعين عليه يوماً بعد يوم أن يحضر السيدة العجوز إلى معمل الفحص وأن يجري لها فحوصات لرسم القلب وتحليلاً للبول وأن يأخذ عينات من دمها عن طريق ذراعيها اللذين ما كانا إلاّ جلداً على عظم، وفي كل مرة كان يغرس فيها الإبرة كانت تتقلص ألماً، ثم تقعي في أحد أركان الغرفة الباردة فوق إناء البول الزجاجي ضاغطة مؤخرتها إليه وهي ترتعد من فرط البرد.

لم تتقيأ دماً، بعد انتهاء الفحص انتابتها حمى معتدلة، وهو أمر لم يحدث لها من قبل، ورغم ذلك وربما لأنها ترغب رغبة قوية في الشفاء، كانت تمثل بلهفة لكل ما يأمرها به سوجورو، وحينما كان يتطلع إليها كان يعجز عن التحديق في عينيها.

– لماذا وافقت على إجراء العملية؟

– ماذا؟...

أصاب سؤله السيدة العجوز بالاضطراب، لماذا وافقت على العملية؟ لم تكن لديها أقل فكرة عما يقصده بسؤاله هذا.

– لماذا قلت إنها ستكون على مايرام؟

– قال دكتور شيباتا إنه لا بدّ من إجرائها، وإنه ليس هناك شيء آخر يمكن القيام به.

في غضون أسبوع جمع شيئاً فشيئاً المعلومات ورتبها في جدول. كانت رئتاها تعملان بصورة أفضل مما توقع، ولكن عدد كرات الدم الحمراء كان متناقصاً، كذلك كان قلبها ضعيفاً فأدرك سوجورو أن احتمال موتها خلال العملية تبلغ نسبته خمسة وتسعين في المائة.

– ستساعدني في هذه العملية أليس كذلك يادكتور؟

حينما كانت تسائله على هذا النحو، ما كان يجد أمامه الكثير ليقوله تعزية لها، ترى ما الذي ؟يمكن أن يقال لها هي التي ستلقى حتفها سواء أجريت العملية أم لم تجر خلال شهور قلائل على أية حال؟ لم تكن لدى سوجورو أية فكرة عما يمكن أن يحدثها به، فبالنسبة له كان شيئاً قاسياً أن يعرض هذه المريضة المحتضرة للألم الإضافي الذي تقتضيه العملية، فما الذي كان بوسعه أن يفعله إلاّ أن يطرف بعينيه ويلزم الصمت؟

– على أية حال هناك مسألة قلبها الآخذ في الضعف.

قال سوجورو مقدماً تقريره إلى آساي، كان هذا الأخير يتناول قدحاً من النبيذ من المخزون الطبي للمستشفي مع دكتور شيباتا.

أضاف قائلاً:

– لست أدري، ولكن إجراء العملية قد لا يكون أمراً يُنصح به.

– أعلم أنها ليست مما يُنصح به.

قالها دكتور شيباتاً متصفحاً بسرعة التقارير التي جلبها سوجورو معه.

كان قدح أو قدحان من النبيذ كافيين لجعل وجهه يتضرج حمرة إلى حد كبير، وأضاف:

– لاداعي للقلق ياسوجورو، ففي النهاية سأكون أنا الذي يمسك بالمشرط، أليس كذلك؟ وعلى أية حال فإنها مريضة اجتماعياً، أليست كذلك؟

– إن سوجورو يشعر بالقلق لأنه مسؤول عنها يادكتور.

تدخل آساي في الحديث مبتسماً، وقد تردّد صوته في أرق نغمات، أضاف:

– كنت مثله تماماً من قبل.

– طبيب، سأجرب شيئاً مع مريضتنا تلك.

مضى دكتور شيباتا مترنحاً قليلاً إلى السبورة. والتقط قطعة طباشير من جيب معطفه الأبيض، واستطرد:

– لن تجري العملية على الإطلاق بأسلوب سميث المألوف، كلا إطلاقاً ياسوجورو، هل قرأت أطروحة كوريو؟

– أطروحة من؟

– حول أسلوبه في التحويل، طيب، انتبه، تحت قطاع الضلع العلوي، افتح وقم بالقطع، ثم اقطع الضلوع بادئاً بالضلع الرابع ثم الثاني فالثالث ثم الأول، هذا هو أسلوب كوريو، وسأهتم بالمنطقة المصابة وكذلك باتجاه الشعب الهوائية.

انحنى سوجورو محيياً، غادر الغرفة، وفي الدهليز ضغط وجهه لبعض الوقت على النافذة، ذلك أنه شعر بالإعياء على نحو غير مألوف، خيم عليه شعور بالثقل. كان العجوز الذي يكلف بأداء مهام غريبة للمستشفي في الخارج يحفر الأرض منتعلاً حذاءه وتأرجحت فوق رأسه أغصان شجرة الحور المثقلة بالبراعم المتفتحة في الريح، قلبّ الأرض الطينية بمجرافه مكوماً إياها على أحد الجانبين ومكرراً حركته المملة مرة بعد الأخرى. مضت شاحنة ترقى التل مثيرة للغبار ومرت من أمام مبنى المعمل، وفوقها تكومّ عدد من الرجال طوال القامة ذوي المظهر غير المألوف يرتدون أزياء رسمية خضراء مرقطة. وبعد أن توقفت الشاحنة عند مدخل القسم الثاني للجراحة، فتح جنديان يتمنطقان بمسدسين بابها ووثبا بنشاط إلى الأرض، وفي تضارب مع حركة الجنديين النشطة راحت المجموعة التي ترتدي المرقطة تجر أقدامها وتتحرك في تثاقل فيما هي ترقى درجة المدخل. ولما كانت قامات أعضائها تعلو شامخة على الحارسين فقد استطاع سوجورو أن يدرك بلمحة واحدة أنهم أسرى أمريكيون.

قال سوجورو لتودا حينما عاد إلى المعمل رقم ٣:

- هناك بعض الأسرى الأمريكيين في القسم الثاني للجراحة، وقد أحضرتهم شاحنة.

كان تودا يبحث داخل أدراج مكتبه.

- ما الغريب في هذا؟ لقد أحضروا من قبل بعضهم، ليأخذوا حقناً مضادة للتيفوس.

قالها تودا في ضيق مغلقاً الدرج، حيث لم يعثر على ما كان ينشده. أضاف قائلاً:

- بحق الجحيم أين ذهبت سماعتي؟ أنت ياسوجورو، دعني آخذ سماعتك للحظة!

- لماذا؟

- هناك مريض آخر ستجرى له عملية جراحية، وقد كلفت مع دكتور آساي بإجراء الفحص له. لا تنفعل! فهي ليست السيدة العجوز. كانت الابتسامة الخابية التي تصحب الحكم التي يدلي بها تودا إلى سوجورو أمراً يعود إلى أيام دراستهما في الكلية، أستأنف حديثه بصوت خفيض:

- من تظنه هذا المريض ياسوجورو؟

- ليست لديّ فكرة.

- السيدة تابي في الغرفة المخصوصة، إنها إحدى قريبات العميد الراحل فيما تقول الممرضات، تلك هي المريضة.

كان سوجورو يعلم حتى دون المعلومات التي نقلها تودا بأمر المريضة الشابة الجميلة المدعوة تابي. كانت الفحوص العامة عادة تبدأ في العنابر، وتستمر في الطابق الثاني من الدرجة الثانية، وتنتهي في الغرفة الخاصة، وإذا ما وصل الفحص إلى هذه الغرف فإن طريقة العجوز نفسه في الحديث والفحص تصبح مهذبة وخاصة مع هذه المرأة الشابة المتزوجة، إذ كان يبدي أعظم الاهتمام بها، وكان بمقدور سوجورو والممرضات أن يروا في أعلى سجل الحرارة كلمات «قريبة العميد أسوجي» مكتوبة بخط آساي.

كان بمقدوره أن يدرك من تاريخ الحالة أنها في مقتبل العمر، كان هناك تجويف معتدل في الجزء العلوي برئتها اليمنى وعدد من المناطق الصغيرة المصابة، ولكن لما كان غشاء الجنب نفسه قد يتعرض لإصابة، فلم يكن بالوسع علاجها عن طريق الاسترواح الهوائي. رقدت في استسلام على فراشها ووجهها متجه لأعلى دائماً، وشعرها الفاحم الطويل منثور على وسادتها ناصعة البياض. كانت مولعة فيما يبدو بالقراءة، ذلك أن عدداً من الكتب غير المألوفة

لسوجورو كانت مرصوصة على الرف تحت النافذة الكبيرة التي كانت أشعة الشمس تلجها معظم ساعات النهار. حينما كان يتعريان خلال الفحص، لم يكن جلدها يبدو كجلد امرأة فقد كان بديعاً، كان زوجها ضابطاً بالبحرية فيما يقولون، يقاتل في مكان بعيد ، وربما لهذا السبب كانت حلمتاها صغيرتين وحمراوين كحلمتي صبية صغيرة، ومرة في كل يوم تأتي امرأة هي غالباً والدتها بصحبة خادمة تحمل سلة تضم وجبات طعامها، كان ذلك في إجماله عالماً مختلفاً تمام الاختلاف عن عنبر المرضى.

– إنك في الطريق إلى الشفاء أيتها السيدة تابي!

كان العجوز يقولها منحياً سماعته جانباً، ويضيف:

– قريباً سأتمكن من أن أريك هذا بنفسي، ولكنه أمر بسيط في ضوء ما أنا مدين به لرقة دكتور أوسوجي.

ورغم ذلك كان إجراء عملية جراحيةٍ أمراً ضرورياً، وكان الموعد المحدد لهاَ هو الخريف المقبل. تساءل سوجورو لماذا إذن قدّم موعد العملية إلى فبراير؟ هل لاحظ العجوز شيئاً خلال الفحص السابق؟ ولو أنه قد لاحظ شيئاً فمن المؤكد أنه لم يأت على ذكره.

– لماذا قُدّم موعد العملية فجأة هكذا؟

– تلك هي المشكلة أليس كذلك؟ لم يبد العجوز اهتماماً كبيراً بالفحوص مؤخراً، من هنا فإن هذه العملية.. قالها تودا ماداً عنقه، ومتطلعاً خارج النافذة من مقعده. أمام مدخل القسم الثاني للجراحة وقف الجنديان وأيديهما مضمومة خلفهما كحيوانين في قفص. تحت شجرة الحور واصل العجوز المنتعل للحذاء تحريك مجرفه كعهده من قبل.

– هناك فكرة تراودني حول أن لهذه العملية علاقة بحصول العجوز على مقعد العميد.

جلس من جديد، انتزع صفحة من قاموس ياباني – ألماني، ووضع بعضاً من نصيبه من الدخان من علبة على مكتبه.

– هذا هو ما يستطيع العجوز القيام به، لسوف يكتسب رصيداً كبيراً من إجراء عملية ناجحة لهذه المرأة، ستجرى انتخابات العميد في أبريل، والمريضة هي قريبة دكتور أوسوجي، ويقتصر المرض على الجزء العلوي من الرئة، وهي ليست ضعيفة بحال، وبدلاً من الانتظار حتى الخريف المقبل فلتجر العملية هذا الشهر، هكذا مع مقدم أبريل سيكون المسرح معداً، وعندئذ سيميل الأطباء من قسم الأمراض الباطنية الذين ينتمون إلى جناح أوسوجي إلى التعاطف

مع العجوز، وهكذا يمكن أن يطاح بدكتور كاندو رئيس القسم الثاني للجراحة قبل إجراء الانتخابات.

تلفظ تودا بهذه الكلمات في قوة وعن عمد مدخناً سيجارته على النحو الذي يميزه. كان ينحدر من عائلة ثرية في أوساكا، ومنذ أيام الكلية وحتى الآن اعتاد أن يشرح لسوجورو الريفي دخائل وبواطن الأمور في العلاقات الإنسانية في كلية الطب، والخطوات التي تقدم عليها الأجنحة المختلفة بالمستشفى فيما هو عاكف على تدخين سجائره.

– الرقة والعاطفية ضروب من الرفاهية محظورة على الطبيب.

كلما ازداد التعبير المرتسم على ملامح سوجورو وهو يطرف بعينيه إيغالا في الحزن ازداد تعبير تودا مرحاً، كان يضيف:

– ليس الأطباء قديسين، إنهم يريدون النجاح، ينشدون أن يصبحوا أساتذة طب مكتملي الأهلية، وحينما يرغبون في تجريب أسلوب فني جديد لا يقتصرون في تجاربهم على القردة والكلاب، هذا هو العالم يا سوجورو، وينبغي أن تلقي عليه نظرة عن كثب.

تساءل سوجورو.

– إذن فقد طلب منك القيام بالفحص؟

قالها وقد جلس في مقعده مغمض العينين، وعاد الاعياء الذي شعر به من قبل في الدهليز يهاجمه متدفقاً. أضاف:

– لست أدري. لست أدري فحسب.

– ما الأمر؟

– ستمضي السيدة العجوز إلى معمل تجارب دكتور شيباتا، أما السيدة تابي، فستكون وسيلة لترقي العجوز.

– بالطبع، ماذا تريد، وما الخطأ في هذا وفي المقام الأول ما الذي يثير اهتمامك بالسيدة العجوز فيعزلك عن كل شيء آخر؟

قالها تودا مبتسماً ومتطلعاً إلى وجه سوجورو الحزين، أضاف:

– نعم، ما السيئ في هذا؟

– لست أدري كيف أعبر عما أشعر به ولكن...

– آه، كف عن هذا! ليس قتل مريض أمراً جهماً على هذا النحو مطلقاً، وليس بالأمر الجديد في عالم الطب فهكذا أحرزنا تقدمنا! الآن في هذه المدينة يلقى أناس عديدون حتفهم في غارة جوية، فلم لانقتلها ها هنا في المستشفى، سيكون لهذا بعض المعنى يافتى!

– أي معنى؟

غمغم سوجورو بها بصوت مثقل.

– الأمر واضح! فلو أنها لقيت حتفها في غارة جوية، فإن أقصى ما كان يمكن أن تأمل فيه هو أن تلقى عظامها في نهر ناكا، أما إذا قتلت خلال عملية جراحية فسوف تصبح دون شك العمود الحي الذي يرفع سقف معبد علم الطب، ألن يكون بمقدور السيدة العجوز بالنظر إلى اليوم الذى سيسترد عدد لا حصر له من مرضى السل صحتهم بالسير على الطريق الذي أرادته، أن تغمض عينيها في سلام؟

– إنك حقاً مجادل بارع.

قالها سوجورو متنفساً بعمق، وأضاف:

– بوسعي أن أتصور هذا بدوري نعم.. نعم...

– كيف يمكنك أن تحيا ما لم تكن بارعاً فظاً؟

قالها تودا وقد ندت ضحكة ملتوية ساخرة، أضاف:

– إنك حمار حقاً كما تعلم، اليوم هل هناك وسيلة غير هذه للمضي قدماً؟

– وإذا كان هناك وسائل أخرى هل ستلجأ لها؟

– سؤال طيب، أما الآن فأسرع! ماذا عن تلك السماعة؟

– إنها... إنها في حقيبة أدواتي.

غادر سوجورو الغرفة. فيما يقف في الحديقة هبت الريح على وجهه، راح يراقب فتور العجوز ذا الحذاء وهو يحرك مجرافه.

– هل تحفر خندقاً طولياً؟

– لا عليّ أن أجتث شجرة الحور، وقد نمت الشجرة على نحو بديع، لكن المسؤولين في الكلية يريدون قطعها، ولا تسألني لماذا!

أما القسم الثاني للجراحة لم يكن هناك أثر للجنديين الواقفين بأيد متشنجة خلف ظهريهما، كذلك اختفت الشاحنة التي جلبت الأسرى بدورها. رقي الدرج إلى سطح البناء الرئيسي الذي غرق في الصمت من جديد، فتردد صدى وقع أقدامه ضاجاً على الدرج. امتد الحرم الجامعي في الأسفل، وإلى اليمين كان هناك جناح الأمراض المعدية، وبناء يضم غرف الدراسة للقسم الأول للطب الباطني، أما مبنى الأبحاث والمكتبة اللذان طليا بالقار وكذلك جناح المستشفي المشيّد بالخشب الذي كان قائماً بين المبنيين، فقد شكلت ثلاثة صفوف إضافية. تصاعد الدخان الرمادي من مدخنة وحدة التعقيم، وكان هناك حوالي مائة مريض، فراح يتساءل كم عدد الممرضات والعاملين. ساوره شعور بأنه ليس إلاّ ترساً في إحدى العجلات التي تدور هنا، والتي لا سبيل أمامه لفهم حركتها، غمغم لنفسه قائلاً «ليس هنالك سبيل إلى التخمين، ولا فائدة من التفكير في الأمر».

بدا البحر اليوم معتماً مهدداً. وانبعث غبار بني من فوكوكا، وبدا أنه يلطخ السحب التي كانت في لون مزيج عتيق من الصوف والقطن بل ويلوث الشمس الشاحبة ذاتها. تساوى عند سوجورو النصر في الحرب أو الهزيمة فيها، وأثقل صدره بصورة صدره طاغية الجهد الذي يقتضيه مجرد التفكير في هذا الأمر.

(٣)

«ستة وخمسون دهراً، وسبعة آلاف حقبة هو عمر بوذيا تفانكين، وللمؤمنين سيتجلى يقين النور...»

– الأمر طيب على هذا النحو، أرقدي ساكنة الآن!

– نعم يا دكتور!

بينما كان سوجورو يجري فحصه، واصلت السيدة العجوز إغماض عينيها، وراحت تصغي للترتيلة التي ترددها ميتسو آبي التي كانت ترقد في الفراش المجاور لفراشها. لم تكن ميتسو مريضة ضمان اجتماعي، ولكن بما أنهما في عمر واحد تقريباً، وترقدان على سريرين

متجاورين فقد كانتا تتبادلان الحديث غالباً في أصوات خفيضة.

– تلك قصيدة أليس كذلك؟

– آه، لا، إنها ترتيلة لشين ران.

قالتها ميتسو آبي وهي تهز ذقنها ناحية السيدة العجوز، أضافت قائلة:

– هل سيكون من المناسب أن أرتل لها شيئا من هذا الكتاب المقدس عن بوذا؟ لقد طلبت مني ذلك.

– استمري!

التقطت ميتسو عويناتها من حقيبتها، وضعتها على أنفها، جلست مستقيمة الظهر في فراشها، التقطت كتيباً صغير الصفحات، ورفعته في توقير إلى مستوى ناظريها، وشرعت في الترتيل:

«تنازل الرب بوذا ذات يوم... بزيارة تابع له كان مريضاً. كان التابع يعاني من مرض خطير، لأنه كان عاجزاً عن إخراج بوله أو غائطه، فقام الرب بوذا..» ما هذه الكلمة يادكتور؟

– «بسماحته» أليس هذا كتاباً للأطفال؟

– نعم يادكتور، لقد سمحت لي تلك السيدة الراقدة في ذلك السرير هنا بأخذه «... بسماحته بزيارته، وسأله هل قمت حين كنت في سمت صحتك بالسهر إلى جوار أسرّة أصدقائك المرضى؟ الآن ها أنت ذا تعاني على هذا النحو الفظيع وحيداً لأنك لم ترع الآخرين من قبل، الآن هل تشعر بحدة الألم؟ حينما تعبر إلى العالم ستعذب بآلام لم يحتملها فؤادك».

فيما كانت ميتسو ترتل بصوت متعثر، ظلت السيدة العجوز مغمضة العينين، سقط طبقها المصنوع من الألومنيوم وبه بعض من قشر البطاطس بنية اللون من الفراش على الأرض. لف الصمت وأرهفوا آذانهم للاستماع.

«ثم إن ما وقع بعد ذلك هو أن الرب بوذا شفاه، وجعله ينأى عن الخسة والأنانية».

شأن طفل صغير، راحت السيدة العجوز تهز رأسها مراراً وتكرار لدى سماعها لصديقتها وهي تردد تفسيرها وثيق الإيمان. نحّى سوجورو سماعته، وراح يتساءل كيف يمكن أن يحدثها بجلية الأمر. التفتت ميتسو إلى سوجورو، وقالت موضحة:

- عليك بابلإغها فهي تشعر في قرارة نفسها بمقدم العملية، وهي تود أن ترى ولدها أولاً، وتشعر بالسلام الذهني حينما تجرى لها العملية.

- هل لها أطفال؟

- نعم يا دكتور، إن ولدها في مكان ما في الجيش.

خرجت ميتسو آبي من سريرها، بحثت في سلة تحته، وأخرجت علماً للشمس المشرقة طُوي بعناية فائقة، كان الشعار المصبوغ الذي يبدو أن صبغته ستزول لدى أول هطول للمطرمؤلفاً من اللون الأصفر المحمر مطبوعاً على قماش أبيض رخيص.

- إننا نجعل الجميع هنا في العنبر يكتبون شيئاً على هذه الراية لولدها، فهل تكتب شيئاً بدورك يا دكتور؟

- ليكن.

أمسك سوجورو بالراية في يديه، وفيما هو يفعل ذلك؛ عرف أن ليس بمقدوره إبلاغ السيدة العجوز بأن يوم اجراء العملية لها قد تحدد، أعلن ذلك في الصباح، فأولاً ستجرى صباح الجمعة المقبل عملية للسيدةِ تابي على يد العجوز، ثم بعد ذلك بأسبوع يجري دكتور شيباتا عملية للسيدة العجوز، وقد كلف تودا وسوجورو بتقديم المساعدة في العمليتين كلتيهما، راح يفكر في الألم الذى سيحدثه المشرط، في الصمت الكئيب الناتج عن نشر عظام الضلوع. بالنسبة للمرضى الآخرين، كان إبلاغهم بالنبأ الذي جلب اسبوعاً من الأسى أمراً سيئا بما فيه الكفاية، ولكن شجاعته خذلته تماماً أمام فكرة إبلاغه لهذه المرأة التي كانت ستلقى حتفها يقيناً.

حينما عاد إلى المعمل البارد، نحى جانباً بعض أنابيب الاختبار، وزوجاً من الملاقط، ونشر على المكتب راية الشمس المشرقة التي أعطته إياها ميتسو آبي. ترى ماذا بوسعه أن يكتب؟ لم تكن لديه أدنى فكرة عما يمكن أن يكتبه. تناثرت على النسيج الأبيض الرخيص الرسائل التي كتبها مرضى العنبر، حينما تصل هذه الراية إلى ابنها الذي وصفه مرضى العنبر بأنه «نقي» و«شجاع» ربما لن تكون أمه إلاّ جثة هامدة. راحت هذه الصورة تطفو في مخيلته، فالتقط إحدى سجائر تودا من درج المكتب وأشعلها. وبعد فترة من التفكير العقيم كتب بفؤاد ثقيل بعض العبارات العاطفية عن ضرورة النصر.

أجريت، وكأنما في تأكيد مباشر لكل ما تقوله تودا، الاستعدادات لعملية السيدة تابي باهتمام وعناية فائقتين. كان تودا كشأنه دائماً، أما آساي الذي أدرك أن نجاح أو إخفاق هذه

العملية، كان أمراً له أهميته الحيوية بالنسبة للقسم الأول للجراحة، الأمر الذي ربط مباشرة مصيره، فقد عكف على أداء واجباته بأقصى قدر من الاهتمام، راح يتطلع إلى اليوم التالي بمزيد من الخوف، ثم إلى العام الذي يليه وما يعقب ذلك، حينما يعود الأطباء الذين كانوا زملاء بعد انتهاء مدد خدمتهم إلى المستشفى والمعامل، كان حتى ذلك الحين قد اضطرّ لإقامة صرح علاقة وطيدة اعتمد العجوز في إطارها عليه تماماً، من هنا فقد عقد العزم على ألاّ يهدر فرصة واحدة للترقي في حَلَبة الطب من خلال رعاية أكثر جراحيها تميُّزاً، غير أن دكتور شيباتا، وفقاً لتحليل تودا أيضا، كان فيما يبدو يشعر بالغيرة من تميز العجوز، ذلك أن شيباتا لم يتدرب على يد العجوز، وإنما كان صنيعة دكتور شيماجاكي كبير الجراحين السابق للقسم الأول للجراحة.

كانت فحوص الطبيب المسؤول تقتصر كقاعدة عامة على فحصين كل أسبوع، ولكن العجوز قبل هذه العملية بالتحديد كان يفحص السيدة تابي مرة كل يوم تقريباً.

– في الخريف ستكونين في دارك.

قالها دكتور آساي لها بلهجة التأكيد، فيما هو يرفع عالياً أمام النافذة صور الصدر التي التقطت بأشعة إكس والتي جلبها ليريها إياها، أضاف:

– بعد ذلك سيكون من الأفضل أن تنالي قسطاً من الراحة في الريف لبضعة شهور، وفي العالم التالي ستكونين قد شفيت تماماً.

ربما لأن احتمال فوزه بمنصب العميد في أبريل المقبل كان يمد العجوز بطاقة توقع متدفقة، فقد بدا مستعيداً لثقته القديمة بنفسه، راح يدخن سيجارة وقد دسّ يديه كلتيهما في جيبي معطفه الأبيض النظيف، ومضى يجوب دهاليز المستشفى في حزم، كان قوام العجوز المحني قليلاً هضيم العظام الغارق في التأمل يجسدّ تماماً بالنسبة لسوجورو ذي التفكير البسيط الصورة التي يثيرها في خياله لقب دكتور ، وشعر بينما كان يجر حذاءه العسكري الثقيل خلف تودا وكبيرة الممرضات أوبا من جديد بشعور التوقير بالإعزاز الذي طالما شعر به نحو العجوز.

– هل كل شيء على ما يرام لعملية ابنتي يادكتور؟

كانت أم السيدة تابي الرقيقة موجودة في غرفتها على الدوام تقريباً. كانت ترتدي «المونبيه» أو تلك السراويل التي أصبحت بالنسبة للسيدات معادلاً للزيّ العسكري خلال الحرب.

ابتسمت الزوجة الشابة مطلة من فراشها، كانت قد اقتعدت الفراش، وراحت ترتب عنق منامتها بإحدى يديها، ودفعت إلى الخلف بيدها الأخرى شعرها الذي تهدل على عنقها.

قال العجوز:

– إنها مسألة روتينية، فقي إطار العملية الجراحية يجري كل شيء بينما المريض راقد تحت تأثير المخدر، ومن الطبيعي أنه في الليلة التي تعقب ذلك سيكون هناك بعض القلق وربما تشعر بالظمأ البالغ، من ثم فإن الأمر سيقتضي الصبر ليومين أو ثلاثة.

– ولكن فيما يتعلق بالخطر...؟

قالتها الأم مقطبة جبينها قليلاً فيما هي تتحدث. لدى سماعه هذه الكلمات راح آساي يضحك في غمار الدور المرسوم له بصوته الأنثوي المهدئ، قال:

– آه، أيتها السيدة ماسودا، يا لذلك الرأي لابد أنك تحملينه عن مهارة دكتور هاشيموتو وعن الجهود التي نبذلها!

لم يكن آساى، وهو يعكف على طمأنتها، بعيداً عن الحقيقة كثيراً، كانت السيدة تابي في أفضل حالة ممكنة بالنسبة لعملية جراحية من حيث فحوص الدم والقلب.. الخ، أحس سوجورو الذي لم يجر بعد عملية جراحية بأنه حتى هو بمقدوره القيام بهذه العملية بصورة ناجحة.

راح يسائل نفسه فيما هو يرقب العجوز الذي كان يضغط بسماعته على صدر الفتاة الناهد، مصغياً إلى دقّات قلبها عن مكونات شعوره بالغيرة، أتراه يشعر بالغيرة من زوجها، الغيرة من السعادة التى لن يقدر له قط أن يحصل عليها؟ أم أن الأمر لايتجاوز أنه استشعر نوعاً من الحنق باسم كل أولئك المرضى الذين يرقدون في العنبر المظلم؟ وأياً كان ما يشعر به فإنه لم يستطع أن يفسر الأمر لنفسه.

حل ليل الخميس، وفي تلك الليلة السابقة للعملية كان على الممرضات أن يزلن الشعر عن جسم المريضة وأن يدلكنها بالحكول. ظل تودا وسوجورو وكبيرة الممرضات أوبا في المعمل حتى وقت متأخر جداً لانتقاء وترتيب الصور التي ستمس إليها الحاجة العملية الجراحية، وأخيراً تأهب سوجورو لمسيرة الدقائق العشر التي ستمضي به إلى مأواه بالمستشفى، وفيما كان يخرج تناهى إليه من بعيد صوت محرك سيارة تقترب في ظلمة الأراضي المحيطة بالمستشفى.

حينما تجاوزته السيارة كان قد لمح وجه دكتور يتألق على عجل تحت أضواء السيارة العابرة، وإلى جواره ضابط قصير القامة لحيم البدن جلس متحجر الفك وكفاه كلتاهما على

مقبض سيفه. أحسّ سوجورو بأن وجه دكتور كاندو يحيطه شيء بعيد عن النقاء على نحو ما، وشعر بأن ظلاً معتماً يمسه.

راح يحدث نفسه قائلاً: «آمل أن يكلل العجوز بالفوز» سيكون الغد يوماً حاسماً في الصراع الخفي الدائر بين هذين الطبيبين، وهو صراع لم يسبق أن انحاز إلى طرف فيه، أما الآن وللمرة الأولى فقد غمره انفعال قوي.

بلغت الساعة العاشرة من صبيحة الجمعة، راح آساي وتودا وسوجورو ينتظرون خارج غرفة العمليات مقدم المريضة. كانوا يرتدون معاطف طبية فوق ميدعات مطاطية، وينتعلون أخفافاً.

بدت السماء معتمة. كانت غرفة العمليات بعيدة تقع على أحد جانبي الطابق الثاني من المستشفى، وهكذا لم يكن يسمح لأي من الممرضات أو المرضى الناقهين بدخولها. ألقت الشمس ببريق كئيب على أرض الدهليز الطويل الخاوي.

بعد فترة سمع المتظرون قرقعة عجلات تتناهى من بعيد ثم شاهدوا العربة النقّالة التي تحمل السيدة تابي وهي تدنو ببطء تدفعها أم المريضة وإحدى الممرضات، بدا وجه المريضة بالغ الشحوب وهي راقدة على العربة النقّالة وقد عمّت الفوضى شعرها وذلك بالنظر إلى جرعة المخدر المبدئية التي حقنت بها في غرفتها، ولخوفها مما سيحل بها.

– كوني شجاعة الآن!

قالتها أمها مسرعة لتواكب العربة النقّالة التي بدأت سرعتها تتزايد، أضافت:

– أمك معك ها هنا، وسوعان ما تصل أختك أيضاً، وستنتهي العملية قبل أن تشعري بها.

فتحت الفتاة المرهقة عينيها فبدتا مهاجتين مثلما عيني عصفور وقع في الشبك، وحاولت أن تهمس بشيء ما، لكن صوتها خذلها.

صاحت أمها هاتفة بها: سيعنى الطبيب بكل شيء، سيعني الطبيب.

وقفت الممرضة أوبا خلف العجوز الذي كان قد غسل يديه في الكحول وثبتت خيوط ربط رداء الجراحة الذي يرتديه، وشأن أم ترى أبناً لها يفوقها في طول قامته وضعت على رأسه قبعة الجراحة التي تشبه الطربوش. أمسكت ممرضة أخرى بصندوق معدني يضم قفاز الجراحة المطاطي، وهكذا اتخذ العجوز الذي بدا وجهه كأنه قناع نوح مظهراً موحياً بالنذير كأنه صورة

طوطمية ناصعة البياض.

كان من الضروري على امتداد العملية الجراحية الإبقاء على درجة حرارة قدرها ٧٠ في غرفة العمليات، وكانت الغرفة دافئة بالفعل، ولإزالة الغبار والدم الذي من المحتم أن ينزف كان الماء يتدفق على أرضية الغرفة على مهل، فعكس ضوء مصباح السقف الهائل وتألقت الغرفة كلها بوهج باهر كأنه بلاتين تم تلميعه، وفي قلب هذا الضوء راح آساى والممرضات يتحركن وأجسامهم تتأرجح فيه كأعشاب بحرية تؤرجحها تيارات المحيط. اختبر تودا أدوات قطع العظم الكتفي للمريضة.

مددت الممرضتان السيدة تابي، التي تعرى جسمها الآن، على مائدة العمليات على جانبها ورفعتها ساقيها قليلاً. بدأ العجوز بيد محنكة التقاط الأدوات من الصندوق المعدني الموضوع على الحامل الزجاجي إلى جوار مائدة العمليات، وراح يرتبها. مشرط نزع غشاء الجنب، أداة قطع عظام الضلوع، المثبتات وأ دوات أخرى، قرقعت قليلاً وهي ترتطم إحداها بالأخرى، حينما سمعت السيدة تابي هذا الصوت الواهن ارتجف جسدها للحظة، لكنها عندئذ أغمضت عينيها مرة أخرى وكأنما حل بها الإعياء ثقيلاً.

– لن يؤلمك الأمر أيتها السيدة تابى!

قالها آساي بصوت رقيق، أضاف:

– سرعان ما تكونين تحت التخدير.

قال العجوز بصوت خفيض، وإن تردّد مرتداً بصداه عن الجدارن:

– هل كل شيء معد؟ .

ردّ آساي:

– نعم يادكمتور!

– عظيم، لنبدأ إذن!

– التفت الجميع في تآلف نحو العجوز والمريضة، وانحنوا محيين في سكون، فضرب الصمت أطنابه في غرفة العمليات، تحركت كبيرة الممرضات أوبا شارعة في تجفيف ظهر المريضة الأبيض بقطن مغموس في صبغة اليود.

– المشرط!

التقط العجوز المشرط الكهربائى المدود له بقبضة يده اليمنى القوية، وانحنى قليلاً إلى الأمام، فلطم سمع سوجورو صوت أزيز، كان صوت العضلات والكهرباء تقطعها وتحرقها، بعد لحظة تحول انحناء اللحم الأبيض الناعم الذى يخطف البصر إلى صورة تفعمها الظلمة والنزيف والدم، وعندئذ تقدم سوجورو فخاطها واحدة إثر الأخرى بسلك حريري.

قال العجوز آمراً:

– نازع غشاء الجنب! ماذا عن الحقن بالدم؟

كانت إبرة نقل الدم قد غُرست في فخذ السيدة تابى الأبيض، قام سوجورو، قبل أن يرد، نفحص السائل المتدفق عبر الأنبوبة المطاطية، كم الوعاء الذي يضم مجموعة من السوائل المتمثلة في المنشطات والڤيتامين وسكر العنب والادرينالين المتدفقة إلى جسد المريضة.

– عادي.

– ضغط الدم؟

– جيد.

قالتها إحدى الممرضات.

انقضى وقت طويل، فجأة بدأت السيدة تابى تئن، كانت قد أعطيت بالإضافة إلى المخدر المعتاد مادة البروكايين، ولكنها رغم ذلك بدت كما لو كانت شبه واعية.

– إني أتألم. أماه، لا أستطيع التنفس.

يشرع العرق يتدفق على جبين العجوز، فجففته كبيرة الممرضات أوبا بقطعة من الشاش.

– لا أستطيع التنفس. أماه، لا أستطيع التنفس..

– المقشط!

حينما نحى غشاء الجنب بدت عظام الضلوع واضحة، شرع العجوز في قطع هذه العظام بعزم مستخدماً أداة تشبه المقراض أو مقص التقليم، ومن تحت القناع الذي يكسو وجهه كان يمكن سماع صوت ضغط أسنانه المكتوم فيما هو يكرس كل قوته لأداء ما هو عاكف عليه. بصوت كئيب تداعى الضلع الرابع الذي كان يشبه قرن وعل، وهوى محدثاً صدى أجوف، ارتفعت شبكة اللحم الذي يغطي الصدر والصدر الداخلي كأنها بالونة حمراء بتأثير ضغط الرئة

تحتها، تردّد صوت أسنان العجوز وقرض عظام الضلوع وصوت تهاويها الجاف على امتداد غرفة العمليات، ومرة أخرى غطى العرق جبين العجوز، ومن جديد مدت كبيرة الممرضات يدها وأزالته بعيداً.

– الحقن بالدم؟

– عادي.

– النبض؟ ضغط الدم؟

– جيد.

– إنني أتناول الضلع الأول.

الآن بدأت النقطة الأشد دقة في هذا النوع من العمليات تهل.

لاحظ سوجورو أن دم السيدة تابي قد غدا فجأة قاتم اللون، فلطمه على التوّ هاجس ثلجي بالنذير، لكن العجوز واصل في صمت قطع العضلات المحيطة بالضلع، ولم تقل المريضة شيئاً عقب فحص مقياس ضغط الدم، كذلك التزم آساي الصمت.

– مشرط القطع!

قالها العجوز آمراً، بدت فجأة وكأنه يرتعد قليلاً أضاف:

– هل المنقي على مايرام؟

كان قد لاحظ أن لون الدم قد غدا قاتماً، وهو مؤشر واضح أن شيئاً ما لايسير على مايرام. لمح سوجورو وجهه العارق وقد تألق كأنما طلى بالشمع.

– هل هناك أمر غير عادى؟

– إن ضغط الدم...

انبعث صوت الممرضة الشابة فجأة في ذعر، أضافت:

– إن ضغط الدم ينخفض.

قال آساي آمراً في عصبية:

– ضعوا قناع الأكسوچين، أسرعوا!

- هناك عرق في عيني، هناك عرق عيني!

قالها العجوز مترنحاً في حديثه، فارتجفت يد الممرضة أوبا وهي تزيح العرق عن جبينه.

- أسرعوا بالشاش!

أسرعوا بوضع الشاش محاولين ايقاف تدفق الدم، ولبكن دونما جدوى، أعمل العجوز يديه في عصبية.

- شاش! شاش! ضغط الدم؟

- مستمر في الهبوط.

في هذه اللحظة التفت العجوز بوجهه نحو سوجورو، بدا كوجه طفل مبتئس يوشك أن ينخرط في البكاء.

- ضغط الدم؟

- ليس هناك ضغط إطلاقاً.

رد آساي الذي كان قد نزع قناعه بالفعل وألقاه على الأرض:

- لقد ماتت.

غمغمت الممرضة التي كانت قد جست نبض المرأة مغمغمة في صوت مسحوق.

حينما حركت الممرضة يد الميتة تهاوى ذراع الجثة التي كانت ممزقة وملطخة بالدم كأنها ثمرة رمان مكسورة على حافة مائدة العمليات. وقف العجوز كأنه في سبات، لم ينبس أحد ببنت شفة، ظل الماء على تدفقه فوق الأرض عاكساً التوهج المنصب من مصباح السقف.

همس آساي:

- دكتور! دكتور!

التفت الطبيب نحوه، لكن نظرته بدت خاوية.

- علينا أن نرتب الأمور.

- نرتب الأمور؟ نعم... نعم، بالطبع.

– ماهو خير سبيل؟ على أية حال فسوف أقوم بخياطة الجراح.

كانت عينا السيدة تابي الغاترتان مفتوحتين في تصلب، ومع بروز لسانها الأحمر قليلاً إلى الأمام بدا فمها مفغوراً كأنما في دهشة من لايعقل، لاحت وكأنها تحدق في ثبات فيهم جميعاً، وكان بمقدور سوجورو في يسر أن يطالع في العينين المحدقتين دليل المعاناة التي خاضت غمارها خلال العملية، كانت بطنها ويداها ووجهها مضرجة بالدماء.

أقعى سوجورو على الأرض وقد تسربت القوة تماماً من ساقيه، سمع في مكان ما من رأسه صوتاً خافتاً يتردد باستمرار كصوت زجاج يتحطم، شعر بالغثيان يغلبه، فحك عينيه مراراً بيده، وجفف العرق عن جبينه.

حل آساي محل العجوز سريعاً، فخاط جراح الجثة، كأنها لحاف ممزق، وبدأت الممرضات في تجفيفها بالكحول.

قال آساي آمراً: ضعن الأربطة، وعليكن بلفّها جيداً!

تهالك العجوز على أحد المقاعد، وظلّ يحدق في إعياء نحو بقعة في الأرض، لم يبد أدنى اهتمام بالأصوات المترددة في الغرفة أو بأصوات الأطباء المقيمين.

– خذوا المريضة إلى غرفتها، ولا تقولوا كلمة واحدة لعائلتها عن العملية!

بينما كان آساي يقول هذا بصوت حاد متوتر، راح يتطلع إليهم كل على حدة، فبعثت كلماته الرعدة في العروق، وتراجعوا بصورة غزيزية نحو الحائط.

– بمجرد إرجاع المريضة إلى غرفتها أعطوها حقنة من محلول «رينجر» وقوموا بكل شيء إلى جوار ذلك تماماً على نحو ما يتم بعد أي عملية، ليست المريضة ميتة ولسوف تموت غداً صباحاً.

لم يكن صوت آساي هو الصوت الناعم مرتفع النبرة الذي يتردد في المعمل، كانت النظارة المجردة من الإطار قد انزلقت على أنفه الذي غطاه العرق.

سارت الممرضة الشابة بخطى غير متزنة على نحو ما، فيما هي تدفع العربة التي مددت عليها الجثة المغطاة بالملاءات، بدا أنها غير مؤهلة للجهد الذي يقتضيه هذا الأمر، في الدهليز أسرعت أم المرأة الميتة والفتاة التي بد أنها أختها حينما لمحتا الوجه الشاحب على العربة النقالة.

– لقد اجتازت العملية بصورة رائعة.

راح آساي فيما هو يقول هذا يبذل جهداً هائلاً مظهراً أمارات الاستبشار ومبتسماً ابتسامة لابد أنها قد كلفته الكثير، لكنه عجز عن التحكم في الخشونة التي طرأت على صوته. وضعت كبيرة الممرضات أوبا نفسها بين الأم والأخت والعربة النقالة، سادة عليهما الطريق بأقصى ما تستطيع من كفاءة، أضاف آساي:

– ستكون الليلة صعبة بالطبع، ولمجرد الاحتياط تعين علينا منع الزوار ليوم أو يومين. صاحب الأخت في شعور بالأسى:

– هل ينطبق علينا هذا؟

– آسف، ولكن هذا هو الواقع، لا تقلقا! فسوف نقضى أنا وكبيرة الممرضات أوبا الليلة إلى جوار فراشها.

فتح باب غرفة المريضة، وسارعت الممرضة الشابة التي كانت مسؤولة عن ضغط الدم خلال العملية وهي على حافة البكاء، بدا أنها لم تستوعب معنى الأوامر التي أصدرها آساي، وقفت كبيرة الممرضات أوبا بجوار الباب ممسكة بالصندوق الذي يحتوى على المحاقن. وحدها هذه المرأة بوجهها الذي يحاكي قناع نوح لم تعكس انفعالاً واحداً، كانت تعلم بحكم الخبرة الطويلة على وجة الدقة ما ينبغى القيام به في موقف كهذا. كان آساي ينتظر داخل الغرفة.

وقف سوجورو متهالكاً في الدهليز وقد أطل من إحدى النوافذ.

– عليك بالمراقبة هنا ياسوجورو والتأكد من أن كل شيء سيبقى طي الكتمان.

قالها آساي آمراً، ومن منعطف الدهليز تناهى صوت تودا، وكان فيما يبدو يحاول ايقاف أم السيدة تابي وأختها اللتين كانتا تعترضان طريقه.

– ولكن أرجوك.

– آسف ياسيدتي.

سمع أصواتهم يتردد صداها مرتداً عن الجدران.

– كيف سار الأمر؟

تطلع سوجورو ليجد أمامه دكتور ثيباتا مرتدياً معطف الجراحيين، وهو يتفحص ملامحه عن كثب. حينما هزّ سوجورو رأسه، بدت ابتسامة ساخرة تتشكل تواً على وجه شيباتا الهضيمْ.

– ماتت أليس كذلك؟ هكذا كان الأمر، متى حدث هذا؟

- عند الضلع الأول.

- هكذا؟ يبدو أن العجوز بدوره ماضٍ في الأمر.

دخل سوجورو الغرفة، حار في أمره ماذا عليه أن يفعل، أزال بأمر من آساي الإبرة التي توصل محلول «رينجر» والتي كانت مغروسة في فخذ الجثة. بدا وكأنه يسمع صوت دقات ساعة يدوّى في رأسه وراح الصوت ذاته يتكرر مرّات ومرّات، ما جدوى هذا؟ ما جدواه؟؟؟

أقبل تودا، عرض على سوجورو واحدة من سجائره التي يلفها بنفسه، رفض سوجورو ملوحاً بيده في إعياء.

- مهزلتنا الصغيرة تسير على نحو بديع.

قالها تودا محدقاً في أرجاء الغرفة، رفع سيجارته إلى شفتيه، فارتجفت يده، أضاف:

- مهزلة بالفعل، مهزلة حقيقية.

- مهزلة؟

- بالقطع، فلو أنها ماتت خلال العملية، فسيكون ذلك مسئولية العجوز بشكل كامل، أما إذا لقت حتفها فيما بعد فربما لن يكون ذلك خطأ الرجل الذي يحمل المشرط، هناك عنصر شك يمكنك الدفاع عن قضية العجوز وقت الانتخابات، لقد أدار آساي الأمر كله.

استدار سوجورو، وانطلق في طريقه إلى الدهليز.

- آمل أن يكون كل شيء على مايرام.

سمع سوجورو صوتيّ الأم والأخت يتناهيان من مكان في الدهليز الكئيب المفعم بالظلال، هبط الدرج في صمت. في الخارج وفيما شرعت الظلمة تضرب أطنابها على الحرم الجامعي، مرت سيارة تقل بعض الممرضات.

- آنسة ساكاتا!

هتف بها أحدهم، وربما كان صديقاً لإحدى الممرضات من نافذة ما. تصاعد دخان ضارب إلى الرماد نحو السماء من مدخنة وحدة التعقيم، وتحت شجرة الحور كان العجوز لايزال يعمل مجرافه، كان ذلك مشهد المغيب المعتاد في الحرم الجامعي، المشهد الذي يرتسم قبيل المساء. فجأة أحس سوجورو برغبة في الضحك وإن لم يدر ما الذى بدا له مضحكاً على هذا النحو.

(٤)

رغم التزام القائمين بالعملية الجراحية الصمت، فإن فشلها انتشر عبر قاعات الدرس وأجنحة المستشفى انتشار النار في الهشيم، وفي غرف الممرضات والمعامل حينما يجتمع اثنان أو ثلاثة لم يكن الحديث يدور إلا حول هذه الشائعة، وتقديراً لوضع أسرة تابى كأقارب للعميد أو سوجو لم تطرح احتجاجات علنية، لكن أطباء الكلية المتخصصين في الأمراض الباطنة، وهم جميعاً من طلاب العميد السابق، انتقدوا أسلوب القسم الأول للجراحة المتعالى في إغفال رأى قسم الأمراض الباطنة والإسراع بإجراء العملية، وعلى أية حال فقد تضاءل الأمل حد التلاشي في تأييدهم للعجوز خلال انتخابات العمادة.

لم يبد هذا أمراً ذا أهمية لسوجورو، فقد تساوى كل شيء عنده الآن، ضربت العتمة أطنابها على ذهنه، غمر الثقل والوهن جسده، ولم يعد يبدي اهتماماً أو حماساً لعمله، أو للمرضى في أسرتهم، أو للمستشفى بوجه عام.

أعلن دكتور شيباتا على نحو عابر بعد يومين أو ثلاثة من وفاة السيدة تابى أن العملية الجراحية المقرر اجراؤها للسيدة العجوز ستؤجل شهرين أو ثلاثة شهور.

– لو أننا تعرضنا لحالتي وفاة على التوالي فإن سمعة القسم الأول للجراحة ستنهار حتماً، أليس كذلك؟ قالها شيباتا، وقد التوت وجنتاه في ضحكة.

سمع سوجورو هذا كله كأنما هو أحداث تقع على كوكب آخر. ولم تساوره السعادة إزاء قدرته على أن يبلغ السيدة العجوز بالأمر.

راح يرقب الشيخ العاكف على العمل بمجرفة تحت سنا شمس الشتاء الشاحبة في الحرم الجامعي. مضى يحدث نفسه، ما الذي فعله هذا الشيخ إلا أن يكرر العمل ذاته مرة بعد أخرى؟ فكر في الأمر! كان يحفر في هذه البقعة ذاتها لمدة تتجاوز الأسبوعين، ربما كان الشيخ ينفذ انتقاماً مريراً من أولئك الذين أمروا باجتثاث شجرة الحور، بل ومن العصر ذاته من خلال الحفر والردم، فالحفر ثم الردم.

كان يسائل نفسه بين الحين والآخر: «طيب، كيف تسير الأمور الآن؟، أهذا ما يعنيه أن يكون المرء طبيباً؟ أهذه كلية طب؟» .

لكن أفكاره عند هذا الحد وفي مثل هذه الأوقات كانت تغيم حتماً وتصبح غارقة في التشوش، يمكن الآن أن يستدعى للخدمة العسكرية في أى وقت من الأوقات، هكذا تساوى

عنده ما يمكن أن يحدث من الآن فصاعداً. كان هذا هو المناخ النفسى الذى هيمن عليه، غير أنه بين الحين والآخر، وفي غمار غيمة من الاحباط كان حنق أسود يطفو فجأة متدلعاً من أعماقه، وقد كان هذا الانفعال الذي غلبه يوم صفع السيدة العجوز.

ذات يوم وخلال جولاته ترك خلسة كتلة من سكر العنب إلى جوار وسادة السيدة العجوز، لمحته ميتسو آبى في غضون ذلك، فرمقته بنظرة جانبية، لكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ ذلك. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي فعل فيها هذا لمريضته. في اليوم التالي، وحينما تصادف أن توقف إلى جوار العنبر كانت السيدة العجوز غافية وكفاها الناحلان يغطيان وجهها، لم تكن قد التقطت الكتلة الصفراء من سكر العنب التي اعطاها إياها، فقد كانت ملقاه على الأرض بجوار الفراش.

راح يحدث نفسه قائلاً: «إنها كالطفل المدلل، تعتمد عليّ، ثم لا تلتقط ما أعطيه لها» كان يعلم أن السيدة العجوز يمكنها استخدام سكر العنب كعنصر مقايضة ثمن للحصول على الطعام من المرضى الآخرين، فأحسّ بالغضب على نحو غير مبرر.

في ذلك الأصيل كانت هناك عملية قياس لضغط الدم عند مرضى العنبر، حضرت ميتسو آبى إلى العمل، لكن السيدة العجوز لم تحضر.

– أين هي؟

– هى، قالت أنها لاتشعر بأنها في حالة طيبة.

مضى سوجورو إلى العنبر المهجور. كانت السيدة العجوز تجلس متكومة وحدها فوق فراشها المضطرب. كان ظهرها ناحية سوجورو، وقد عكفت مثل فأر على قضم كتلة سكر العنب التي أمسكت بها في تشبث بيدها كلتيهما. لدى مشاهدة قوامها التعس وشعرها المصفر أحس سوجورو باشمئزاز يستعصى على الافصاح يمتلك ناصيته.

– لماذا لم تحضرى؟

– آه!

– لم تستطع العجوز التى ضغطت يديها على فمها الرد.

نزع سوجورو في خشونة وذهنه يغلى اضطراباً يديها، نحاهما بعيداً، فتراجعت العجوز على غطاء الفراش المتسخ، لطم الوجه المرتعد براحته المفتوحة.

لم يعد العجوز يحضر إلى المعمل الآن، وقام دكتور شيباتا بدلاً منه بجولتي العنابر كل أسبوع. في الغرفة التي كانت ترقد فيها السيدة تابي، نزعت الحشية من السرير وألقيت على الأرض، وتناثرت فوقها ثلاث أو أربع قطع من ورق الجرائد عليها آثار أقدام ملطخة بالطين.

أجمعت الآراء على أن العجوز لم يرغب في أن تقع عليه عين بسبب فشل العملية الجراحية، وهكذا كسا الإهمال المعامل وغرفة الممرضات وجناح المستشفي بوجه عام، ولج غبار رمادي عبر النافذة المكسورة وجثم على الدهليز، أهملت الممرضات المنوبات أعمالهن، وغض المرضى أنفسهم الطرف عن الضوابط التى تقيدهم في فترة الهدوء التي تعقب طعام الغداء.

– اليابان والقسم الأول للجراحة كلاهما في حالة التداعي ذاتها.

قالها تودا ونغمة الازدراء تعلو فوق المعتاد في حديثه، بينما كان يمضي جيئة وذهاباً في الغرفة الباردة، أضاف:

– فليكن، ستمضي بعيداً لتؤدي الخدمة كطالب طبيب بكلية الضباط، وتتخلص من هذا المكان. قال سوجورو طرفاً بعينيه:

– ليكن أليس كذلك؟ فيما يتعلق بي فلست أكثرت بما يحدث، أما عنك فلماذا لم تطلب أن يتم استدعاؤك للخدمة العسكرية؟

كان من المعروف أنه إذا طلب طبيب مقيم أن يؤدي الخدمة العسكرية فوراً فبإمكانه أن يصبح طبيباً ضابطاً بعد تدريب قصير.

– من؟ أنا؟

كانت ابتسامة تودا كالمعتاد ملتفة بالسخرية، أضاف قائلاً:

– إلى الجحيم بكل ذلك.

– إذا لم تقم بهذا فستصبح جندياً عادياً.

– سأنظر ماذا سيحدث، فأن يلقى المرء مصرعه جندياً أو طبيباً كأن يموت في أى وضع آخر.

– لماذا؟

– الأمر كله سيان بغض النظر عما تفعله، أما اليوم فإن الجميع في طريقهم إلى الخارج.

في وقت لاحق من اليوم نفسه شهد سوجورو شاحنة أخرى محملة بالأسرى الأمريكيين أمام مدخل القسم الثاني للجراحة، وكما حدث من قبل وقف جنديان في مقتبل العمر إلى جوار باب الشاحنة وقد تدلّى مسدسان على ردفيهما. بينما كان سوجورو يمر قريباً كانوا يرقون الشاحنة، بدوا أكثر طولاً وأيديهم وسيقانهم أكثر امتداداً بأرديتهم المرقطة الواسعة، كان أحدهم يمسك بفرع قصير من شجرة الصنوبر، وبينما كان سوجورو يسير إلى جوارهم لم يستشعر نحوهم اهتماماً أو فضولاً. كان بعضهم، وقد نبتت له لحية صهباء متناثرة الشعر، لايتجاوز في عمره سنوات المراهقة. لم يستشعر سوجورو نحوهم اشفاقاً ولا عداء ومقتاً. مرّ بهم في طريقه بذلك الافتقار إلى الاهتمام الذي كان يحس به ناحيه رجال لايتوقع أن قد يلتقيهم مرة أخرى في حياته وسرعان ما سينساهم، ولكن كيف يبدون لأنفسهم؟ يقيناً أنهم يبدون متجاوزين لمجرد كونهم أسرى. برهن فتور سوجورو الذهني على أنه عقبة كأداء في طريق المزيد من التأملات على هذا النحو.

بعد أسبوع من رؤيته للأسرى، وقعت غارة جوية كبرى على فوكوكا للمرة الأولى منذ عدة أسابيع، بدأت في صدر الأصيل، ولما كان عدد الطائرات أكبر من المعتاد، فقد لاذ المرضى القادرون على السير بالملجأ، أما الآخرون فقد حملوا إلى هناك على محفات. ورغم أن كلية الطب كانت على مبعدة من المدينة فإن ارتطام القنابل كان كافياً لهز نوافذ المستشفى، وواصلت قذائف المدفعية المضادة دورتها المستمرة، وفي السماء المعتمة كالرصاص راحت الطائرات الكسول من طراز ب — ٢٩ تتوالى بلا انقطاع.

أخيراً وعند الغروب، مضت آخر طائرة للعدو عائدة نحو قواعدها في البحر الجنوبي. وحينما صعد سوجورو إلى السطح شاهد المدينة بكاملها غارقة في دخان أشهب، راح يتصاعد منها، كان متجر فوكايا الكبير يحترق وحينما خفت حدة الدخان كان بمقدور سوجورو أن يلمح ألسنة برتقالية من اللهيب تندلع، وفي الشرق وكأنما اجتذبتها ألسنة اللهيب والدخان أقبلت سحابة ضخمة عبر الأفق، وشرعت تغطي المدينة تدريجياً. طوال الليل همى مطر بارد، فاختلط بالرماد. في المستشفى وزعت قطع البسكويت الجاف التي تم الحصول عليها من الجيش على المرضى جميعاً بواقع خمس قطع لكل منهم كتعيين خاص، ووزعت ضمناً على مرضى العنابر. كان سوجورو منوباً تلك الليلة، فلم يعد إلى غرفته، لفّ ساقيه اللتين دسهما في طماق في بطانية، ورقد ليغفو على أحد المكاتب في العمل.

أيقظته إحدى الممرضات قبيل الفجر، قالت إن السيدة العجوز تحتضر، فأسرع عدواً نحو الجناح، كانت ميتسو آبى تقف وحيدة تحت الضوء الخافت للشمعة الوحيدة المحترقة بجوار السيدة العجوز. ترى أيرجع الأمر إلى أن أحد من المرضى لم يكن يدري، أم أنهم كانوا

يعلمون ولا يكترثون، فظلّوا دافنين وجوهم في ألحفتهم؟ أوقد مصاحبه الكهربي أمام وجهها، في الوقت ذاته الذي كان يتهاوى على أحد الجانبين والحياة ترحل نائية عنه. سال اللعاب من فمها المفتوح، رأى يدها اليسرى مطبقة في احكام ففتحها عنوة. سقطت قطعة من بسكويت البارحة متصلبة كالحجر، وتدحرجت على الأرض، حينما شهد سوجورو هذا، تذكر متألماً المشهد الذي لم يبعد به العهد للعجوز في الجناح المهجور وهي تقضم قطعة سكر العنب بأسنانها الأمامية، تذكر كيف صفعها على وجهها.

همست ميتسو آبى في أسى قائلة:

– سيحصل ولدها على تلك الراية على الأقل.

تأكدّ الهاجس الذي شعر به حينما كتب تلك العبارة الشائعة عن النصر المحتم على الراية، غير أنه كان يفكرْ في الموت في غمار عملية جراحية لا في موت طبيعي كهذا، فقد كانت صدمة الغارة الجوية ومطر الليل البارد أشد وطأة من أن تحتملهما.

استمر المطر في اليوم التالي كذلك، عاني سوجورو من صداع قاسٍ وربما لأن نوبة برد قد انتابته، وقع عبء لتخلص من جثة السيدة العجوز على كاهل الشيخ غريب المهام، الذي كان يواصل الحفر تحت شجرة الحور. من إحدى نوافذ المعمل راح سوجورو يرقبه وهو يحمل مع عامل آخر التابوت الخشبي الذي يضم الجثة.

– ترى أين سيدفنونها؟

– لاتسلني!

قالها تودا متحدثاً خلفه، أضاف:

– وبهذا ينقشع وهمك، فكل ارتباط هو وهم.

كان قد ارتبط بتلك العجوز ولمدة طويلة. لماذا؟

راح سوجورو يتساءل. الآن شعر للمرة الأولى وكأنه بدأ يدرك الأمر، حدث نفسه قائلاً: كانت الشيء الوحيد في غمار مقولة تودا المتشائمة «سيخرج الجميع» الذي كنت بسبيلى إلى التأكد أنه لن يموت، كانت مريضتي الاولى، الآن هاهي تمضي مبللة بالمطر موضوعة في تابوت من الخشب البرتقالي، الآن بالنسبة لي، بالنسبة للحرب، لليابان، لكل شيء، فلتمضي الأمور كيفما طاب لها.

(٥)

أدرك سوجورو عقب وفاة السيدة العجوز أن نوبة برد سيطرت عليه، ربما بسبب الليلة التي قضاها غافياً في المعمل، ألمت به حمى، وأحسّ بأنه يهيمن عليه الوهن، وفيما كان يجلس عاكفاً على عمله إلى جوار تودا، راحت رأسه تنبض ألماً، وبدا أنه على وشك التقيؤ.

قال تودا:

– هل كان سل السيدة العجوز متفشياً؟ على أية حال فإن وجهك شاحب. تميل جوانبه إلى اللون الرمادي. ألقى سوجورو نظرة على نفسه، فرأى أن وجهه كان حقاً رمادياً منتفخاً وعيناه تبدوان

جامدتين ملتهبتين. أطلت ممرضة من الباب، وكانت الممرضة المسؤولة عن ضغط الدم في يوم العملية الجراحية، قالت:

– دكتور شيباتاً يريد مقابلتكما معاً.

– ماذا؟ هل يريدنا الآن؟

– نعم، قال تواً.

– إني أعاني من صداع فظيع.

احتمل سوجورو شعوره بالغثيان بقدر استطاعته، ومضى مع تودا إلى المعمل رقم ٢.
حينما ولجا المعمل ألفيا شيباتا وآساي بصحبة ضابط طبيب ممتلئ الجسم متورد الوجه، وقد جلسوا في ارتياح. ألقى الضابط نظرة متقدة على الطبيبين المقيمين.

– عظيم.

وبهذه الكلمة الوحيدة نهض، وغادر المكان.

تألقت في المجمرة النحاسية جمرات فضية تفوح بروائح زكية، ويتصاعد منها دخان أزرق. على المائدة كانت هناك مجموعة من علب السجائر وأقداح الشاي التي أترعت بالخمر.

– إجلسا هناك، لقد تركنا ضابطنا الطبيب، ولكن لم يفته أن يترك لنا بعضاً من غنائمه.

راح شيباتا يؤرجح ساقيه إلى الأمام والخلف للحظة مقرقعاً بمقعده الدوار.

– تفضلا ودخنا، ياسوجورو وتودا، إقتنصا هذه الغنائم العسكرية!

نهض آساي، ومضى ليطل من إحدى النوافذ. أدرك سوجورو وتودا معاً أن هناك شيئاً يدور في ذهنيهما وأنهما دبّرا لهذه الجلسة عن عمد.

- تودا، إن موضوع بحثك هو علاج تأثير التجوف، أليس كذلك، ارتسمت ابتسامة مصطنعة على الوجة الهضيم، أضاف:

- ما مدى اضطراد سير عملك فيه؟ من العسير هذه الأيام إنجاز أى شيء، وبغض النظر عن نظرية مونالدي فمن المستحيل أن تضع يدك على أية وثائق جديدة، أليس كذلك؟

التقط تودا دونما رد سيجارة من الغنائم، وأشعلها، الآن اختلطت الرائحة المميزة للدخان والورق المحترق بالرائحة المتصاعدة من المجمرة، مما جعل شعور سوجورو بالغثيان يتفاقم داخله.

- سوجورو، يبدو أنني خسرت.

استجمع سوجورو بشكل ما القوة الكافية للردّ على الرغم من صداعه وإعيائه.

- خسرت؟ ما الذي تعنيه يادكتور؟

- اعني مريضة العنبر تلك التي ماتت قبل أن أصل إليها، كنت بسبيلي إلى تجريب ذلك الأسلوب الجديد.

تساءل سوجورو بجفاف:

- إنك تشعر كما لو أن سمكة أفلتت بطعمك يادكتور؟

- لا، ذلك أقرب إلى الشعور بالهزيمة في الحب، أليس الأمر كذلك يادكتور؟

قالها آساى مقاطعاً بصوته الأنثوي المتناهي من قرب النافذة.

راح سوجورو يحدث نفسه محاولاً قمع شعوره بالغثيان الذي فاقم من حدته الدخان المتصاعد من المجمرة: لم لا يصلون إلى لب الموضوع؟

التقط سيباتا أحد الأقداح، ووضعه على راحته، خفض عينيه، وراح يدير الكأس مراراً وتكراراً.

- طيب... على أية حال خلال يوم أو يومين ستسمعون بشيء من العجوز نفسه، وفي الواقع... صدرت عنه الكلمات بتردد على وجه التقريب.

– وفي الواقع فقد تحدثنا مطولاً عما إذا كان من المناسب جعلكما تشاركا.

بعد أن قال هذا توقف عن الحديث، وشرع من جديد يدير الكأس على راحته. جفف سوجورو العرق الذي تجمع على جبينه، تراقص اللهب متصاعداً من المجمرة، انتشرت رائحة تحاكي سمكة متحللة في أرجاء الغرفة.

– في الواقع وبصفة عامة بدا أن من الأفضل ألا تشاركا، ولكن هذا الأمر من وجهة نظر الباحث الطبي هو أكثر الفرص التي يسعى إليها تألقا.

واصلت القرقعة العالية الصادرة عن الكرسي، الذي كان في حاجة جلية إلى التزييت، مصاحبة دوران القدح.

– أفترض أنكما معاً تعلمان أنه منذ تلك العملية والعجوز يشعر أن القسم الثاني للجراحة ودكتور كاندو قد أصبحت لهما اليد العليا، الآن نحن نشعر بأن الارتباط بعلاقات طيبة مع مسؤولي الشؤون الطبية بالقيادة الغربية لن يكون فكرة سيئة على الإطلاق، خاصة وأن هؤلاء المسؤولين تربطهم علاقات حميمة بالقسم الثاني للجراحة، من هنا نشعر أنه ما من حاجة تدعونا إلى أن نرفض في ضيق اقتراحهم الودود وأن نجرح مشاعرهم، غير أنه بالطبع إذا بدا لكما أن هذا العمل لايروقكما فيستعين إنهاء الأمر بالنسبة لنا، وسيسعد خمسة أطباء من قسم كاندو على الأغلب أن يقتنصوا هذه الفرصة، ولكن باشتراككما بالإضافة لي وآساي مع العجوز فإن خمستنا يمكن أن يؤدوا المهمة بقدر كاف من النجاح. تساءل تودا:

– هل هى عملية جراحية؟ كل ما عليك يادكتور هوأن تقول كلمة واحدة فنشارك.

– لا، لا، لا إرغام في الأمر، غير أنني حتى إذا لم تشاركا سيتعين عليّ أن أطلب منكما معاً إبقاء الأمر طي الكتمان تماماً.

– سيجرى بعض عمليات تشريح الأحياء على الأسرى الأمريكيين ياتودا!

حينما فتح سوجورو عينيه في الظلمة سمع هدير البحر البعيد، والكتلة السوداء للبحر تتدفع منطلقة نحو الشاطئ ثم الكتلة ذاتها وهي تتراجع من جديد.

لماذا تعين عليّ الانغماس في تشريح الأحياء ذلك؟ لم تتح لي فرصة عادلة، لو أنني فحسب خطر لي أن أرفض هناك في غرفة دكتور شيباتا لرفضت.

ترى هل يرجع التزامه الهدوء وموافقته إلى أن تودا قد جذبه معه؟ أم أن ذلك يرجع إلى

الصداع والشعور بالغثيان المتواتر في معدته؟ ثم هناك لهب المجمرة الأزرق ورائحة سيجارة تودا اللذين جعلاه يزداد قرباً من الوهن والإعياء.

قال آساي مقترباً بوجهه وعويناته المجردة من الإطار تتألق:

– ما رأيك في الأمر ياسوجورو؟ أنت حر تماماً كما تعلم.

فيما عاد الضابط الطبيب القصير اللحيم إلى الغرفة وانبعث ضاحكاً.

– ياللأوغاد! ما الذي يفعلونه غير القصف بلا تمييز؟ لقد حكم عليهم بالفعل بالإعدام أمام فرقة التنفيذ من قبل القيادة الغربية، وأياً كان الشكل الذي سيعدمون به فالأمر سيان، بل سيحصلون هنا على الأثير ويلقون حتفهم في نومهم.

واصل سوجورو الحديث مع نفسه: «الأمر سيان، لقد تم استدراجي للأمر، ربما بسبب ألسنة اللهيب المنبعثة من المجمرة، ربما بسبب سيجارة تودا، وما الفارق إذا كان هذا يرجع إلى هذا السبب أو ذاك وبغض النظر عن مدى تفكيرك فلا جدوى في الأمر، إنني شخص واحد فحسب، هل يمكنني تغيير العالم؟».

يتهاوى سوجورو في غيابات الرقاد، ثم يفتح عينيه مرة أخرى، ومن جديد يهوى في نوبة من الاكتئاب، فيرى نفسه في حلم في البحر المعتم، وجسده هيكل سفينة تكتسحة دوامات الأمواج.

منذ ذلك اليوم فصاعداً وحينما كان سوجورو وتودا يلتقيان بالصدفة في المعمل كان كل منهما يتجنب عين الآخر، وحينما تبدأ الموضوعات التي يناقشانها في الانجراف ناحية الدوامة المهددة بالخطر، كان أحدهما أو الآخر يسارع بتغيير الموضوع. لماذا استجاب لاقتراح دكتور شيباتا؟ لم يوضح أحدهما ذلك للآخر، وحينما كان الآخرون يناقشون العمليات الجراحية، كانا كلاهما يمضيان في عملها بوجوه متشنجة.

وصل خطاب تحديد المهام الخاص بعمليات تشريح الأحياء في اليوم السابق على إجراء العملية الأولى، فتولى آساي توزيعه سراً، في اليوم الأول من مشروع القسم الأول للجراحة تقرر تشريح ثلاثة أسرى، وقد حددت أهداف التجربة على النحو التالي:

١ – يحقن ماء بحر عادى في مجرى دم الأسير الأول، ويتعين التأكد من الحدود الكمية المحتملة لمثل هذا الإجراء قبل أن تحدث الوفاة.

٢ – يحقن الهواء في عروق الأسير الثاني، ويتم التأكد من الكمية التي تحدث عندها

الوفاة.

٣ - يجرى قطع لرئة المريض الثالث، ويتم التيقن من الحد الذي يمكن التوغل إليه في قطع الشعب الهوائية قبل حدوث الوفاة.

الجراحون: برفسور هاشيموتو، بروفسور شيباتا.

المساعدون: المساعد الأول: هيروشي آساي.

المساعد الثاني: تسايوشي تودا..

المساعد الثالث: جيرو سوجورو.

كان للتجربة التي ستجرى على الأسير الأول أهمية كبرى للعمل الطبي في زمن الحرب. يستحضر ماء البحر العادي من خلال إذابة ٩٥ جراماً من الملح في ١٠٠ سنتيمتر مكعب من الماء المقطر، ولم يتم قط التأكد من مقدار الكمية من هذا المحلول التي يمكن حقنها كبديل للدم في دم مريض ما، ولما كانت حياة الإنسان معرضة للخطر دائماً في غمار هذه العملية. فإن السؤال ظل بلا جواب، وكانت وجهة النظر الشائعة تدور حول أن مقداراً يتروا‌ح بين لتر ولترين هو كمية يمكن حقنها بأمان، ولكن كل ما عدا ذلك كان مجهولاً.

تألفت التجربة الثانية من حقن الهواء في عروق أسير. إذا حقن أرنب بـ ٥٠٠ سنتيمتر من الهواء فإن النتيجة ستكون موتاً فورياً، ولكن ماذا عن الإنسان؟

تضمنت التجربة الثالثة تناول مشكلة كان الجراحون توّاقين بصفة خاصة إلى حلها، فقد ابتكر دكتور سيكجوتشى الأستاذ بجامعة توهوكو والدكتور أوساوا الأستاذ بجامعة أوساكا الأمبراطورية طريقة واحدة لاستئصال الرئة، لكن المشكلة التي بقيت معلقة دارت حول المدى الذى يمكن الوصول إليه بأمان في قطع الشعب الهوائية.

بينما كان سوجورو يقرأ الملخص أدرك في الحال أن شيباتا وليس العجوز كان وراء خطة التجربتين الأوليين، راح طارفاً بعينيه كعادته يفكر في وجه دكتور شيباتا الهضيم.

كان اليوم التالي هو الذي يسبق العمليات، وفي المساء كرس سوجورو، الذي لم يعج في غمار الصراع مع السؤال «لماذا» وقته لتنظيف أدراج مكتبه وترتيب الأشياء التي يضعها فوقه، وراح تودا يراقب هذا النشاط بينما كان يدخن سيجارة.

تساءل سوجورو:

– سأمضي للدار، ماذا عنك؟

– كلا.

–بدا صوت تودا ثقيلاً أجوف النبرات وهو ينطق بهذه الكلمة.

– طاب مساؤك.

– إنتظر لحظة!

قالها تودا، ونهض مسرعاً، فأوقف سوجورو عند الباب.

– ماذا؟

– إنتظر لحظة!

جلس سوجورو، لكن الصمت ظلّ مهيمناً، كان الحديث يعني الكذب، فهكذا فكر سوجورو، شعر بأن تودا يسخر منه.

– تناول سيجارة!

مدّ تودا نحو سوجورو العلبة التى تحتوى السجائر الملفوفة يدوياً والتى كان يعكف على اعدادها، فالتقط سوجورو واحدة وأشعلها، ثم راح يحدق في طرفها المشتعل دون أن أن يقول شيئاً، غمغم تودا قائلاً:

– إنك أحمق آخر.

– آه.

– لو أنك كنت تفكر في أن عليك أن ترفض، فلا يزال أمامك الوقت الكافي لذلك.

– آه.

– هل سترفض؟

– أحسب أنني لن أرفض.

– هل تظن أن هناك إلهاً؟

– إلهاً؟

– آه، ماذا بحق الجحيم يا سوجورو! طيب دعني أحاول! أنظر! يتعرض الإنسان لكل أنواع الضغوط، يحاول بكل الوسائل الهروب من القدر، الآن فإن من يهبه الحرية للقيام بذلك يمكنك أن تسميه الله.

تنهد سوجورو، حدث نفسه قائلاً: «لست أدرى عمّ تتحدث؟». كان طرف السيجارة المتوهج قد خمد، فوضع السيجارة على المكتب، قال:

– بالنسبة لي فليس بمقدورى أن أدرك كيف أن وجود الله من عدمه يشكل فارقاً.

– نعم، هذا صحيح، ولكن بالنسبة لك ربما كانت السيدة العجوز نوعاً من الآلهة.

– نعم، ربما.

نهض، حمل حقيبة أدواته، إنطلق إلى الدهليز، في هذه المرة لم يستوقفه تودا.



الجزء الثاني

المتهمون

(١) الممرضة

حالت مشكلات تعرضت لها أسرتي دون انتهائي من برنامج الدراسة بمدرسة تدريب الممرضات في فوكوكا قبل بلوغي الخامسة والعشرين من العمر، ثم بدأت العمل في مستشفى كلية الطب. في ذلك العام كان هناك شخص تعرفت عليه اسمه يوئيدا، كان مريضاً في المستشفى أجرى عملية استئصال الزائدة الدودية. أريد أن أنسى كل ما يتعلق بيوئيدا، حيث إنه باستثناء أمر واحد لا علاقة لحياتي الزوجية معه بهذا الأمر، لن أكتب بالتفصيل عن هذه الحياة هنا. حينما أفكر في هذا الرجل أتذكر دائماً يوماً حاراً في مطلع أحد فصول الخريف، وأشعة الشمس تتسرب من نافذته الواقعة في الطابق الثاني، وهو راقد في الفراش في قميص من الكريب وسراويل قصيرة تصل إلى ركبتيه، كان قصيراً، أكرش، يتحدر عرقه غزيراً، وتقهره الحرارة دائماً، كانت إحدى مهامي باعتباري ممرضة أن أجفف له جبينه، وفي ذلك الوقت لم أكن أستشعر مودة أو فضولاً نحو هذا الرجل ذي العينين الصغيرتين الضيقتين الناعستين.

ذات يوم أقدم يوئيدا فجأة على حك وجهه بمعدتي، وأمسك يدي بقوة متشبثاً بها، وحتى الآن لست أدري لم تركته يفعل ذلك، أحسب أنه خطر لي فجأة أن الخامسة والعشرين من العمر سن مناسبة للبدء فيما يتعلق بأمور الزواج، ثم لم تكن وظيفته باعتباره كاتباً في سكك حديد منشوريا بالمركز السيء، هكذا رحت أحدث نفسي، ثم -هذا أمر محرج للغاية- أردت في ذلك الوقت أن يكون لي طفل، ليس طفلاً من أي رجل بالطبع وإنما طفل ينتمي إلى رجل من نوعية يوئيدا.

خارج المستشفى كان الليل يحدث ضجة فظيعة، وكان كف يوئيدا غارقاً في العرق. كانت أسرة يوئيدا تقيم في أوساكا، لذا أقيم حفل الزفاف في فوكوكا، وبالتحديد في منطقة باكوين، حيث يقيم أخي. بمقدوري أن أتذكر يوئيدا على نحو جلي مرتدياً حلة مؤجرة، كانت بالغة القصر بالنسبة له، وهو يجفف العرق عن جبينه وعنقه الغليظ طوال حفل الزفاف. ما إن انتهى حفل الزفاف حتى مضى إلى ميناء شيمونو سيكي حيث وجد سفينة مبحرة إلى دايرين. كان اسم السفينة ميدوري مارو، وكانت المساحات المخصصة للدرجة الثالثة حيث كانت مزدحمة بالمزارعين المنطلقين إلى منشوريا. انتشرت رائحة زيت السمك الفظيعة، والتاكوان من حيث كانوا يطهون طعامهم، وبالنسبة لي أنا التي لم تقم قط بشيء من قبيل مغادرة شيمونوسيكي والمضي إلى بلد أجنبي كانت فكرة عبور البحر والذهاب إلى مستعمرة كانتو التي لا أدري عنها شيئاً أمراً مثيراً للقلق تماماً. جلست على الحصيرة التي فرشت فوق الأرض، ورحت أمعن التفكير، حينما تطلعت إلى وجوه عائلات المزارعين الذين كانوا متمددين فوق حقائب عتيقة، وسلال أكثر قدماً، راودني بدوري أن أغادر وطني وأمضي وحيدة للعمل في

مكان بعيد. في الليل كانوا ينخرطون جميعاً في ترديد أغنيات الحرب تلك التي يعشقونها بأصوات عالية. وأراد يوئيدا، رغم أنني كنت مصابة بدوار البحر حقاً، أن يضفي الرومانسية على الرحلة.

- لا تمسني! دعني وشأني!

أحرجنى وجود كل هؤلاء الناس حولنا، فدفعت جسده اللحيم بعيداً، أضفت:

- لماذا تعود بالدرجة الثالثة، ألا تدفع لك الشركة نفقات رحلة العودة؟

- حينما نعود إلى دايرين سيتعين علينا ابتياع أشياء عديدة فما جدوى إهدار النقود قبل ذلك؟ ثم يزداد ضيق عينيه الخنزيريتين فيما هو يحدق في فيما كان يفترض أنه نظرة رقيقة.

- أتشعرين بالرغبة في القيء؟ لا يمكن أن يكون الأمر حملاً، فالوقت لايزال مبكراً على ذلك فيما أحسب.

طوال النهار كان سطح بحر الصين الشرقي بلونه المسود يعلو ويهبط متأرجحاً إلى الأمام وإلى الخلف خارج النافذة البحرية، بينما كنت أرقبه دونما فكرة تشغل ذهني، حدثت نفسي قائلة: «طيب، تلك حياتك الزوجية».

في صباح اليوم الرابع بلغنا دايرين. اختلط المطر بغبار الفحم فيما هو يقطر من نوافذ المتاجر، أقبل بعض الحمالين الصينيين متلقين أوامرهم من جنود يحملون المسدسات ويتمنطقون بها، كانوا يحملون غرائر ضخمة على ظهورهم، فتتأرجح من جانب إلى آخر على سيقانهم الهزيلة.

- يالأولئك الأوغاد! إن اثنين منهم فحسب يحملان آلة بيان.

قالها يوئيدا، ووجهه ملتصق بالنافذة البحرية متحسساً بأصابعة شحمة أذني. اصطفت عربات كثيرة تجرها بغال طوال الآذان على الرصيف في انتظار الركاب. تلك ليست بغالاً، وإنما هي جياد منشوريا.

كان يوئيدا قبل مجيئه إلى فوكوكا، قبل أربع سنوات، قد عمل في المكتب الرئيسي في دايرين وقد استشعر الآن الفخر بقدرته على أن يحدثني بكل شيء عما نرى في الطريق من الرصيف إلى المنطقة السكنية التابعة للشركة.

كان المكان الذي سنقطن فيه قريباً من المعبد الرئيسي في دايرين. كان الشتاء بارداً ،

لذا لم تبن البيوت من الخشب، وإنما بني بيتنا من طوب معتم اللون، وحولنا تناثرت بيوت كثيرة تشبهه تماماً، لم يكن أي منها يضم أكثر من غرفتين، لكنهم بنوا داخل الجدران نوعاً غير مألوف من نظم التدفئة يدعى «بيتشيكا».

في البداية حدثت نفسي بأن هذه المدينة الاستعمارية غريبة حقاً، بدت أشجار السنط التي تلقى رعاية كبيرة والتي اصطفت على امتداد الشوارع، والمباني التي تشبه الطراز الروسي مختلفة تماماً عن الدور المهملة في المدن اليابانية العادية. كان الجميع جنوداً ومدنيين طالما أنهم يابانيون يسيرون مسرعين ويتدفقون نشاطاً. سألت يوئيدا:

– أين يقطن المنشوريون؟

ردّ ضاحكاً:

– عند حواف المدينة، إنه مكان قذر تفوح منه رائحة الثوم حتى أن المرء تعاف نفسه الذهاب إلى هناك. في هذا الوقت كان نظام التوزيع بالبطاقات في الوطن صارماً للغاية، لذا دهشت لرخص الأشياء هناك، ووفرة كل شيء.

– أيتها السيدة هل لك في بعض السمك؟

في كل صباح كان الصينيون الذين يبيعون الخضر الطازجة يصيحون بي على هذا النحو مخفضين أسعار أحدهم الآخر بقدر استطاعتهم، ومقابل عشرة سين كان بمقدور المرء أن يشتري اثنين من (الكابوريا) الضخمة.

– اللعنة! إن هؤلاء الأوغاد يغلبونك دائماً، وأنت لا تحسنين إدارة الأمر على الإطلاق.

كان يوئيدا يلقي نظرة على دفتر النفقات كل صباح، وعادة كان يلقي عليّ محاضرة مطولة. خلال أقل من شهرين على مجيئي إلى هذا المكان، أدركت كم كان يوئيدا محقاً حينما قال إن أول شيء يتعين على الياباني تعلمه هنا هو الأسلوب الصحيح في التعرف على المنشوريين، فعلى سبيل المثال كانت تقيم إلى جوارنا عائلة زوجا، وكان لديهم اثنان من المنشوريين: هما صبيان في الخامسة عشرة والسادسة عشرة يعملان كخادمين، وعبر الحديقة كان بوسعي سماع السيدة زوجا وقرينها يصرخان فيهما ويضربانهما. في البداية أفزعني كل هذا التعنيف، لكنني اعتدته تدريجياً، وقال لي يوئيدا إن تلك هي الطريقة التي يعامل بها المنشوريين، فعليك بضربهم وإلا فلن يفعلوا شيئاً، ثم تصادف أنني بدلاً من تشغيل الخادمة، بدأت أجعل فتاة تتردد عليّ ثلاث مرات في الأسبوع، وسرعان ما اعتدت ضربها دون أي سبب على الإطلاق.

شعرت بالرضا تماماً في ضوء الأسعار الرخيصة وجمال المدينة وكون الحياة هنا أفضل منها في الوطن، ظننت في ذلك الوقت أن هذا يعني أنني رضيت بيوئيدا. أقبل الشتاء الأول، كان ذلك الوقت في شهر ديسمبر، وكان البتشيكا يبقى داخل الغرفة أكثر دفئاً منه في الوطن، ولكن أي شيء تصيبه الرطوبة قليلاً، وسواء أكان ثمرة يوسفي أو حذاء فإنه يغدو متصلباً كالصخر. كنت أنفق أمسيات الشتاء خلال انتظار عودة يوئيدا الذي كان يتأخر لقضاء أعمال الشركة كما قال في خياطة ملابس الطفل، حيث كنت حاملاً، وفي تدليك أردافي على يد الفتاة الخادمة. في الخارج وعبر الثلج المتساقط كان بمقدورك أن تسمع قرقعة العربات بعيداً والسائقون يعملون أسواطهم في الجياد. لم تخطر ببالي لبراءتي فكرة أن يوئيدا كان يقضي أمسياته في مطعم تعمل به نسوة، ويدعى مطعم أيروها في حي نانيوا، وكانت السيدة زوجا جارتي هي أول من لفت نظري إلى هذا، وكان أول رد فعل لي هو قولي: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً». حينما سألت يوئيدا ضاقت عيناه الخنزيريتان وضحك. حينما حدث ذلك أردت أن أصدق أن الأمر حق، ولكن في ظلام الليل وحينما أحسست بكفيه فوقي لم يصغ جسدي للقول القاسي الذي كان على فؤادي أن يتفوه به، ولم أستطع عند ذاك التشكك في زوجي.

حل شهر أبريل، ولفّ الربيع الوطن، لكن الثلج كان لا يزال متكوماً في دايرين، وقد اسود بتأثير الدخان المنبعث من مواقد الكيروسين، كان البرد لايزال حاداً، وكنت في مستشفى شركة سكة حديد منشوريا في انتظار مولد طفلي، ولما كان هذا المستشفى مجانياً تقريباً بالنسبة لعائلات العاملين في الشركة فقد حثني يوئيدا على دخوله مبكرة بقدر ما أريد لأن ذلك أمر «مربح»! وقد حملت قوله محمل الصدق، ولم يخطر ببالي قط أنه هو الذي أراد الطفل بهذا الإصرار ما إن تدخل زوجته المستشفى حتى يجلب امرأة أخرى للإقامة معه في الدار.

تظل الكتابة عن مولد الطفل حتى الآن مؤلمة، في ضوء أنه يتعين عليّ استحضار ذكرى الأمر كله. حينما تقرأ هذه الصورة ربما ستدرك أن ثمة شيئاً مفقوداً في قلبي وحياتي لأنه قدر لي ألاّ يكون لي طفل أبداً. لسبب أو لآخر مات الطفل في بطني. كنت قد اخترت له اسم ماسو وسعدت بهذا الاسم، لكن تبين أنني لم ألق نظرة على وجهه أو جسده، كنت أعرف باعتباري ممرضة كيف تحدث مثل هذه الحالات، لكنني بكيت وألحفت في الرجاء على الطبيب كي أراه. لكن ذلك كان بلا جدوى، وأخيراً كان من الضروري لإنقاذ حياتي استئصال رحمي كلية.

– ليس ثمة ما يدعو للقلق.

قالها يوئيدا ناظراً إليّ بعينيه الخنزيريتين. الآن وفيما أفكر في الأمر يبدو لي أنه كان سعيداً

في قرارة نفسه لموت الطفل لأنه غدا من اليسير عليه الآن التخلص مني. أضاف:

– لقد سألت الطبيب، فقال إن كل شيء سيكون على ما يرام. ماذا؟ بالنسبة للعملية، لا نفقات تقريباً، من الناحية العملية تعنى الشركة بكل شيء، ليس الأمر خسارة كبيرة.

حينما سمعته يقول هذا، حدثت نفسي في الحال قائلة: «إن له امرأة أخرى. أليس كذلك؟» لقد كانت السيدة زوجا على حق، ولكن من المضحك حقاً أنني لم أشعر بجنون الامتلاك ناحيته أو الغيرة. حينما انتزعوا مني أنوثتي ساروني شعور بأن هوة قد انفتحت عند أقدامي، ابتلعني هذا الإحساس الأجوف تماماً، ولو أنني تحولت إلى حجر لما اختلفت النتيجة. تجرى عمليات لبعض النسوة لمساعدتهن لكن أنوثتي استؤصلت، ولم يعد أمامي شيء إلا المضيّ في الحياة امرأة عرجاء.

حينما غادرت المستشفى بعد ذلك بحوالى شهر لاحظت لدى خروجي إلى الشارع أن الربيع قد حلّ في دايرين بدورها، وعند منعطفات الشارع كانت أشجار الصفصاف مزهرة، تحاكي زهيراتها كرات القطن، تهب عليها جميعاً الريح. التصقت بعض وريقات هذه الأزاهير بعنق يوئيدا الغارق في العرق، كان قد أقبل لاصطحابي للدار. راحت وريقات الأزاهير تطفو سابحة في الهواء على الحقيبة التي جلبتها الفتاة الصينية. عضضت شفتي وأخذتني الرعدة حينما تذكرت أن هذه الحقيبة تضم ملابس الطفل التي لم يعد لها جدوى.

بعد عامين من هذا انفصلت عن يوئيدا، حينما أبلغني بالأمر صرخت وبكيت كالمعتاد، ولكن هذه الصورة ستغدو بالغة الطول إذا أتيت على ذكر الأمر المضجر بكامله لذا سأدعه وشأنه.

من المضحك أنني لا أستطيع تذكر شيء خاص مما حدث لي معه خلال هذين العامين، وحينما أرغم نفسي على التفكير في الأمر فإن كل ما أستطيع تذكره هو أنه راح يزداد ترهلاً كل يوم ويتناول نوعاً من السوائل الطبية بنية اللون لأنه كان يشعر بقلق على ضغط دمه، قال لي إن ممارسة الجنس تضر بقلبه، لذا كان يعود إلى البيت متأخراً، فيرقد ويأخذ في الشخير خلال وقت قصير. علمت أن حقيقة الأمر أن تلك المرأة في مطعم روها قد انتزعت منه كل شيء. في الظلام وحينما كانت جثته الضخمة تتدحرج قربي كنت أدفعها بعيداً، لم يكن الأمر حقاً راجعاً فحسب إلى أنني لم أعد أحبه، حتى جسدياً لم أعد أرغب فيه، فقد بدا لي أن عجزي عن إنجاب طفل قد أوقف رغبتي في المضاجعة. ورغم ذلك فقد واصلت الحياة معه لمدة عامين بسبب ضعفي وخوفي مما سيقوله الناس، لم أرد أن أكون واحدة من أولئك النسوة وافرات العدد اللاتي يطردهن أزواجهن، فيضطرون للعودة إلى الوطن.

حينما تركته ودعت دايرين من فوق سطح سفينة ميدورى مارو ذاتها التى جلبتني قبل ثلاث سنوات إليها، وتماماً مثلما في اليوم الذي جئت فيه كان المطر يقطر من أسطح المتاجر، والشرطة العسكرية تقود الحمالين كالقطعان، وهم يحملون الغرائز على الرصيف. حينما حدثت نفسي بأنني لن أرى هذا المشهد ثانية قط أو المدينة ذاتها أحسست أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن ذهني.

حينما عدت إلى فوكوكا كانت الحرب قد اندلعت بالفعل في جنوب المحيط الهادي، واكتظت المدينة بالجنود والعمال، ولكن حينما كانت الحياة تزداد خشونة، كنت أستعيد ذكرى ما مررت به في دايرين، وعندئذ يصبح الفارق بين الحياتين كالفارق بين النعيم والجحيم. ولم تبد السعادة على أخي وزوجته لعودتي، ولما كنت من النوع الذي لا يطيق تحمل أي شيء، فقد شعرت بغضب هائل. التحقت بوظيفة ممرضة في المستشفي، غادرت دارهما، واستأجرت غرفة في بناية قريبة من كلية الطب. في المستشفى كانت وجوه الممرضات وأناس القسم الطبي قد تغيرت عن وجوه أولئك الذين عرفتهم قبل أربع سنوات، وهو الوقت الذي عرفت فيه يوئيدا حق المعرفة هناك. كان كل الأطباء المقيمين قد أصبحوا أطباء كاملي التأهيل وضباطاً أطباء في مكان ما بالجيش أو البحرية، ومضت الممرضات اللاتي كن زميلاتي في الدراسة إلى المناطق تستعر فيها الحرب كممرضات عسكريات. لم أكن أحلم في دايرين بأن الحرب قد تركت بالفعل مثل هذا التأثير الكبير على المستشفى. كان دكتور إينوي رئيس القسم الأول للجراحة قد توفي، وحل الدكتور هاشيموتو محله، الآن وقد فارقت يوئيدا قررت أن أعيش حياتي وأن أحتمل ما يمر بي، ورغم ذلك فإن بدء العمل بالمستشفى من جديد لم يكن بالأمر الممتع. كانت الممرضات اللاتي سبقتهن في مدرسة التمريض يسرن الآن في الدهاليز كأن المكان ملك لهن ويصدرن الأوامر، ثم علمت أيضاً أن الشائعات حولي وحول عودتي من منشوريا وكل شيء كانت رائجة في غرفة النوبة الليلية. استأذنت من صاحب البناء الذي أقيم في إحدى غرفه وابتعت كلبة منغولية صغيرة. كنت أعرف كم كان ذلك اسرافاً في وقت كان الحصول على الطعام يزداد صعوبة كل يوم، لكن أن يحيا شيء حي معي حتى ولو كان كلباً بعث العزاء في نفسي في غمار حياتي المترعة بالوحدة. أسميت الكلبة ماسو، وكنت أفكر حينذاك في الطفل الذي ولد ميتاً من دايرين. حينما تنهرها تبدأ في الارتعاد، وإذا ما أخطأت تسرع لتختبئ في ركن الغرفة، كانت المنفذ الوحيد لعواطفي الآن.

ولكن في الليل وتحت الظلمة، حينما أستيقظ لسبب أو لآخر قليلاً، وأسمع هدير الأمواج في الظلام، حيث لم يكن المحيط بعيدا عن شفتي يصيبني شعور بنوع يستعصي على الوصف من الوحدة ودون أن أدري أضع يدي خارج الغطاء وكأني أبحث عن أحد، حينما كنت أدرك أنني أبحث عن يوئيدا الذي ينبغي أن أكون نسيته تماماً أشرع في البكاء والرثاء

لنفسي. كان ما فكرت فيه حقاً في تلك الأوقات هو مدى رغبتي في أن يحضر أحدهم ويقيم معي.

الآن وفي إطار هذه الصورة، فإنني لا أشعر بالميل إلى كتابة أي شيء قد يبدو بمثابة دفاع عن نفسي، ولكن خلال الوقت لم يكن كبير الجراحين دكتور هاشيموتو يعني بالفعل شيئاً لي، اللهم إلا من حيث كونه الرجل المسؤول عن العمل الذي أقوم به، لم أكن إلا ممرضة وبالنسبة لي كان أساتذة الطب ومساعدوهم يتجاوزون مجرد كونهم أناساً يحيون على مستوى رفيع، كانوا إلى جوار هذا قوماً يعيشون منذ لحظة ميلادهم في عالم آخر، وكان الموقع الذي نشغله نحن الممرضات يزيد قليلاً عن ذلك الذي تشغله النسوة القائمات بأعمال النظافة، هكذا فمن المضحك أن الشيء الوحيد الذي يربطني بدكتور هاشيموتو هو زوجته هيلدا.

كانت السيدة هيلدا ممرضة حينما كان دكتور هاشيموتو يدرس في المانيا، وأذكر أنني سمعت عن غرامهما حينما كنت بمدرسة التمريض، ورغم ذلك فإن المرة الأولى التي رأيتها فيها كانت بعد التحاقي بالعمل في المستشفي بأسبوعين. كان ذلك في وقت متأخر من أحد الأصائل، فجأة لاحت امرأة أوروبية متينة البنية عند مدخل القسم الأول للجراحة على ظهر دراجة ربطت إليها سلسلة ضخمة، ولدهشتي وقفت الممرضات وقفة الانتباه، ثم أقبلن مسرعات، عندئذ تقدمت هذه المرأة الأجنبية ذات الشعر القصير والسراويل الواسعة إلى المستشفى، يشعر المرء لمرآها بأنها شاب قوي وليست امرأة.

سألت ممرضة شابة تدعى كونو كانت تقف إلى جواري: من هذه؟ هزت كتفها استهانة بجهلي وقالت: ألا تعرفين؟ إنها السيدة هيلدا زوجة كبير الجراحين.

التقطت السيدة هيلدا لفافة مغلقة بالسوليفان من سلتها الضخمة، سلمتها إلى دكتور آساى، فأخذها هذا مبتسماً، أوسع الابتسامات التي استطاع أن يرسمها على ملامحه. بدت بطولها وعرضها وكأنها تفوق دكتور آساي قوة ورغم كونه رجلاً. رأيت حينما التفتت نحوي أنها قد استخدمت أكثر مما ينبغي من طلاء الشفاه. لوحت لنا، وبخطوات رجولية واسعة مضت عبر الدهليز. داخل اللفافة التي أعطتها الدكتور آساى كان هناك قدر كبير من البسكويت المصنوع منزلياً، وفي ذلك الوقت لم يكن بمقدروك الحصول على البسكويت والأشياء التي من هذا النوع في أي مكان. لذا كان هناك اندفاع محموم للحصول عليها وأفلحت في الحصول على قطعة منها.

التزمت الصمت بينما كنت ألتهمها منتظرة ما ستقوله الممرضات عن السيدة هيلدا. رحن يثرثرن حول ثقل طلاء شفتيها، وهو شيء لم تكن النساء اليابانيات يحتملنه، ثم قالت

إحداهن:

– إنها تحدث تأثيراً هنا بجلبها البسكويت وغسلها للملابس الداخلية للمرضى، ذلك هو ما يميزها عن غيرها.

فيما بعد أدركت أنهن يثرثرن كثيراً عن زيارتها لمرضى العنابر في كل مرة تأتي فيها إلى المستشفى. كانت تأتي بانتظام ثلاث مرات في الشهر حاملة بسكويتها، وتمضي إلى العنابر تجمع كل الملابس الداخلية للمرضى، وفي المرة الثالثة التي تحضر فيها توزعها من جديد مغسولة ونظيفة، كان ذلك هو «العمل المخلص الذي اختارته».

وفي الحقيقة فإننا نحن الممرضات لم نكن نقدر كثيراً طيبتها، وأحسب أن الأمر كان بمثابة متاعب جمة لمرضى العنابر أيضاً، فشأن صبي يافع كانت تتجول بخطواتها الواسعة عبر المستشفى موزعة بسكويتها ومستحثة المرضى على إعطائها ملابسهم المتسخة لتضعها في سلتها وتنتقل إلى العنبر الآخر.

لما كنت أكتب هذا كله مسرعة فتعين عليّ هنا أن أقول إنني خلال تلك الفترة لم تكن لدي أي مشاعر مناوئة للأنشطة الخيرية التي كانت تقوم بها.

قال دكتور آساي بصوت يبدو مندفعاً بالانفعال: لاشك في الأمر. عليك بتسليمها لها، لقد نظفت السيدة هاشيموتو مبولة فوسا أوتو، وهي السيدة الأوروبية!.

بالنسبة لنا نحن الممرضات كانت هيلدا امرأة مؤثرة، وذلك كل ما هناك، ولم يكن هناك سبب خاص يدعونا للشعور بأي كراهية نحوها.

كانت المرة الأولى التي تساورني مشاعر سيئة نحو هذه المرأة راجعة لشيء آخر. كان ذلك الأصيل أصيلاً صيفياً عادياً، جلست على الدرج المفضي إلى الحديقة، كنت جالسة هناك فحسب دافنة رأسي بين كفيّ، عاكفة على التفكير في الوقت الذي كنت فيه في ذلك المستشفى الذي تديره شركة السكك الحديدية في دايرين، وحول وفاة صغيري.

في تلك اللحظة بعينها أقبل طفل صغير في الرابعة أو الخامسة من العمر عدواً من ظل البناء، كان وجهه ياباني الملامح، لكن شعره كان أصهب، أدركت في التوّ أنه لابد أن يكون ابن السيدة هيلدا والدكتور هاشيموتو، أحسست بشيء يتغلغل بداخلي، فلو أن طفلي عاش لكان في عمر هذا الطفل، ودون تفكير مددت يدي لأعانق الصبي.

– لا تلمسيه من فضلك!

فجأة ومن خلفي سمعت صوت أمه المتوتر، كانت السيدة هيلدا بطلاء شفتيها الثقيل

تقف خلفي مباشرة وقد ارتسم تعبير قاسٍ على ملامح وجهها، ثم صفرت للطفل كما لو كانت تدعو كلباً.

لكن الطفل راح ينظر إليَّ، ثم نحو السيدة هيلدا كما لو كان حائراً يبحث عن السبيل الذي يسلكه للحظة أو لحظتين. رحت والسيدة هيلدا نحدق إحدانا في الأخرى، كما لو كنا نتراهن على ود الصغير، لماذا انغمست في هذا الأمر؟ كانت الذكرى المؤلمة ليوم مولد طفلي وانتزاع أنوثتي تنهش داخلي، أحسست بالمرارة التي قد تتوقعها مني نحو زوجة وأم سعيدة.

– اعذريني من فضلك!

احتضنت هيلدا الطفل، وراحت تتحدث بيابانية طليقة مضيفة:

– كما تعلمين يمكن للأطفال بسهولة التقاط عدوى السل، حينما أغادر المستشفى أغسل يدي دائماً بالمطهرات.

وفي تلك الليلة شعرت بالوحدة في غرفتي أكثر من ذي قبل، وحينما كنت أطعم كلبتي لاحظت أن معدتها ملطخة بالدم، فجأة انتابني الغضب فرفعت يدي، ورغم انها جثمت خائفة، وراحت تنظر بعينيها ضارعة، فقد لطمتها على رأسها مراراً وتكراراً، وبينما كنت ألطمها ولسبب أو لآخر، لم أشعر بالرغبة في البكاء.

بدأت اهتم فجأة بدكتور هاشيموتو، لكني بالطبع لم أهتم به لأنه كان شخصاً يحيا على مستوى أرفع ولكنه زوج هذه الهيلدا. حينما كان هذا العجوز يسير بحذاء الممرضات المصطفات أمام غرف المرضى ومرتدياً معطفه الأبيض لم تكن تفوتني حقيقة أن هناك قطعة صغيرة من التبغ ملتصقة بمعطفه، بدأ المزيد من الشيب يزحف على شعره، بدا وجهه متعباً مرحباً بتقدمه في السن، ترهل لحم وجنتيه، كيف يمكن لهيلدا التي تبدو كرياضي شاب أن تحب شخصاً كهذا؟ حينما كنت أرى إصبعه يمس بطرفه صدر مريض كنت اتخيل هذا الإصبع يداعب هيلدا، عندما رأيت أحد أزرار قميصه مقطوعاً ساورتني سعادة خفيفة فقد لاحظت شيئاً غاب عن زوجته هيلدا.

إزداد تفاقم الحرب، كانت شقتي شأن المستشفى بعيدة للغاية عن المدينة فلم تلحق بها أضرار على الإطلاق، أما فوكوكا ذاتها فقد احترق ما يزيد عن نصفها في الغارات الجوية. انتقل أخي الذي يقطن اكوين بالقرب من قلب المدينة إلى الريف قبل ستة شهور. لكنني لم أفكر قط في زيارته، ولم يزرني بدوره. سمعت شيئاً عن انتقال يوئيدا من دايرين إلى هاربين لكني لم أتلق منه حتى بطاقة بريد، كنت امرأة وحيدة لا أحد في الدنيا أعتمد عليه، بل لم تكن لدي فكرة عن مسار الحرب حيث لم أشعر قط بالرغبة في قراءة الجرائد وفي الحقيقة أنني لم أكن مهتمة

بما إذا كان وطني سيفوز بالحرب أو سيخسرها. في غضون هذا الوقت وحينما كنت أفتح عيني في الظلام كان يبدو لي على نحو ما صوت البحر يزداد ارتفاعاً وفيما كنت أرهف سمعي في الظلام بدا لي أن هدير الأمواج كان في الليلة الماضية أقل ارتفاعاً منه الليلة وأنه آخذ بالارتفاع، وفيما هذا الصوت الهادر الهائل كصوت طبل عميق خفيض يدوي كنت أفكر في الحرب وفي هذه الأوقات وحدها، فأحدث نفسي: ستهزم اليابان، وعندئذٍ إلى أين سيطاح بنا جميعاً؟

لم أكترث بالموضع الذي سيطاح بنا إليه. كان المزيد من المرضى يحتضرون في المستشفى وبصفة خاصة مرضى عنابر السل، وشأن دقات الساعة في انضباطها كان مريض يلقى حتفه كل أسبوعين، ذلك أن هذا المرض ينبغي أن تصحب علاجه تغذية جيدة، ولم يكن لدى هؤلاء المرضى المزيد من النقود لابتياع الطعام من السوق السوداء، ولكن بغض النظر عن عدد المرضى كان هناك سيل منهم، فما إن يخلو فراش حتى يشغله مريض جديد، ولَما كنت حديثة العهد بالالتحاق بالعمل فقد التحقت بعنبر السل هذا، لكني لم أشعر بالرغبة في العناية بالراقدين هناك على نحو ما تفعل تلك الهيلدا، وإنما كنت أقوم فحسب بما يتعين عليّ أداؤه دون أن أتطوع خلاف ذلك بأي شيء. وعلى أية حال وبغض النظر عما كان يمكن أن أفعله فأحسب أن فؤادى تملكه الشعور بالعجز، بدا الأمر كما لو كان الجميع يجترون في قلب محيط مظلم، وأحسب أن الحادثة الثانية التي وقعت بيني وبين هيلدا ربما كانت راجعة إلى هذا المناخ النفسي الذي ساد حياتي. كانت هناك عملية جراحية تجرى لامرأة شابة متزوجة تقع حجرتها الخاصة في الطابق الثانى لذا كانت غرفة الممرضات شاغرة إلا مني، وصلت السيدة هيلدا لتوّها إلى المستشفى لكن أحداً لم يستقبلها عند الباب، وكنت وحدي في غرفة النوبة أفحص سجل ضغط الدم.

– هلا جئت لحظة أيتها الممرضة!

أطل عجوز من العنبر في منامة مهلهلة برأسه إلى الغرفة، أضاف:

– السيدة ماياشي تعاني نوبة حادة.

– ما المشكلة؟

– لست أدري، ولكنها تعاني نوبة حادة.

حينما مضيت إلى العنبر وجدت مريضة تدعى ماياشي وقد التف حولها خمسة أو ستة من المرضى، كانت تتألم، وتشبثت يداها بصدرها، وانحرفت عيناها، وفي حدود معلوماتي كممرضة كان بمقدروي الحكم لدى النظر إليها بأنها تعاني من استرواح هوائي تلقائي، كان

الهواء ينهل داخلاً في تجويف رئتها، فكان أمراً خطيراً، أسرعت عدواً إلى المعمل، ولكن دكتور آساي وتودا وسوجورو كانوا جميعاً يشاركون في العملية الجراحية، وكان دكتور شيباتا وحده خالياً من العمل، لكنني لم أر له اثراً، أدركت أنه لو لم يتم إيقاف الهواء فستموت اختناقاً، لذا اتصلت بغرفة العمليات هاتفياً.

قلت مسرعة للممرضة كونو التي ردت على الهاتف:

– دكتور آساي، هناك مريض يعاني من استرواح هوائي تلقائي دعيني أكلمه!

لست أدري السر في ذلك لكن كان بمقدورك عبر سماعة الهاتف أن تسمع أصوات أخفاف تمضي جيئاً وذهاباً، وكان ذلك شعوراً غريباً، ومع ذلك فقد خيل إلي أن الهدوء المخيم في غرفة العمليات يفوق المألوف خلال عملية عادية، كأنما وقع شيء.

تناهى إلي في الحال صوت دكتور آساي الغاضب عبر سماعة الهاتف، بدا منفعلاً للغاية:

– مريضة العنبر توكي ماياشي تعاني من استرواح هوائي تلقائي.

– ليس هناك ما يمكنني القيام به، إنني مشغول، افعلي ما تستطيعينه.

– لكنها تعاني بشدة...

– على أية حال فقد تجاوزت مرحلة المساعدة، احقنيها بمخدر...!

لم أسمع المزيد لأن دكتور آساي وضع السماعة بعنف. رحت أحدث نفسي، أعطيها مخدراً، أعطيها حقنة مخدر، كان بمقدوري سماع صوته يردد ذلك في أعماقي.

راحت الشمس نهاية الأصيل تنهل عبر نافذة المعمل، وكان هناك غبار رمادي يغطي المكاتب، التقطت سائل البوكايين المستخدم كمخدر، حملت محقنة وعدت إلى العنبر، وحينما دخلت رأيت هيلدا إلى جوار فراش المرأة متشبثة بها كانت ترتدي سراويل واسعة.

– أحضري جهاز الاسترواح الهوائي بسرعة أيتها الممرضة!

صرخت هيلدا في وجهي، لما كانت ممرضة في مستشفى ألماني فقد أدركت في الحال أن المرأة تعاني من استرواح هوائي، ثم فجأة راحت تحدق في زجاجة البروكايين والمحقنة اللتين كنت أحملهما، فتبدل لون وجهها، نحتني جانباً، واندفعت خارج العنبر لتبحث عن جهاز الاسترواح الهوائي.

رحت ألتقط القطع المهشمة من الزجاجة على الأرض، كان بمقدروي الشعور بتحديق

المرضى في ظهري، عدت إلى غرفة الممرضات، كانت الشمس تهبط لتوها في البعيد، بدت شمساً هائلة حمراء متألقة تماماً على نحو ما كانت في دايرين، تماماً كما اعتدت أن أرقبها من غرفتي في مستشفى سكك حديد منشوريا.

– لماذا كنت توشكين على حقنها؟

وقفت هيلدا بالباب ضامة يديها إلى صدرها كأنها رجل محدقة في بغضب، أضافت:

– على أية حال كانت تحتضر فيما أحسب، هل كان الأمر كذلك؟

– ولكن...

رحت أنظر إلى الأرض. أضفت:

– أياً كان ما سأقوم به فقد كانت ستلقى حتفها، أليس بمقدروك مساعدة شخص بتركه يموت على نحو أيسر؟

– حتى وإن كان شخص ما على وشك الموت فليس من حق أحد أن يقتله، ألا تخشين الله؟ ألا تؤمنين بعقابه؟

لطمت السيدة هيلدا المكتب بيدها اليمنى، ومن قميصها كان بمقدوري أن أشم رائحة الصابون، ولم يكن بمقدور يابانيين مثلنا الحصول على الصابون في ضوء الأوضاع القائمة حينذاك، كان الصابون نفسه الذي تستخدمه في غسيل أردية المرضى وملابسهم الداخلية، لم أدر السر في ذلك، ولكنني شعرت فجأة برغبة في الضحك، ترى هل يرجع الأمر للصابون في أن اليد التي لطمت بها المكتب كانت خشنة ومتقشرة؟ يراودك الشعور بأنها قد حكت بالرّمل، لم تكن لدي فكرة عن أن جلد البيض يتسخ على هذا النحو، كان ظهر اليد مكسوّاً بشعيرات شقراء، بدا الأمر كله مضحكاً في البداية، ولكن فيما كنت أصغي أثقل ما قالته على أعصابي، بدا الأمر كما لو كان هدير البحر الذي يحاكي اللطمات الصادرة عن قرع طبل ضخم، والتي أصغيت إليها خلال الليل تزداد ارتفاعاً وعمقاً.

كنت منوبة تلك الليلة، غادرت المستشفى في منتصف الليل، وكنت على وشك العودة إلى شقتي حينما صادفت دكتور آساي الذي كان يدور حول نفسه في الخارج.

– كيف كانت العملية يادكتور؟

– من؟ أنت؟ آه، ماذا تريدين؟

كان قد عكف على الشراب وبقدر اهتمامه الدائم بمظهره كان الآن قد ترك عويناته تنزلق على أرنبة أنفه.

- لقد قتلناها.

-أماتت؟

- نعم، نعم، قتلناها، لم تدر الأسرة بشيء بعد، أتفهمين؟ العجوز، لم يعد الأمر بيده، العجوز... حينما تحل الانتخابات سيهزمه كاندو المخضرم وعلى مستوى أسوأ كما ترين، وأيضاً سيضيع مستقبلي.

وضع يده على كتفي، كان بمقدوري أن أشم رائحة الخمر في أنفاسه وهو يتعثر قليلاً.

- أين تقيمين؟ سأرى بيتك.

- إنه قريب من هنا.

- هل يناسبك حضوري؟

في تلك الليلة مكث دكتور آساي في غرفتي، فلم أكترث للأمر على الإطلاق.

- هكذا، فعندك كلبة، إيه! هيلدا لديها كلبة أيضاً، لقد تدخلت فيما لايعنيها مرة أخرى اليوم.

- لكنك يادكتور تظهر لها آيات الاحترام.

- آيات احترامها، ذلك على سبيل الفكاهة فحسب، أود لو ضاجعت تلك المرأة البيضاء ذات مرة.

- أتساءل كيف حالها في الفراش مع دكتور هاشيموتو.

- من؟ هيلدا؟ أراهن أنها امرأة معطاء، إنها امرأة تفيض أنوثة تحت ذلك الغطاء الخيري، ما عليك إلا أن تنظري إلى جسدها. لم لا تجربين حظك مع دكتور هاشيموتو؟ سيكون ذلك رداً على هيلدا العجوز.

أحسست بيدي آساي فوقي، لكن الأمر لم يكن ممتعاً على الإطلاق، أغمضت عيني، ورحت أتساءل كيف سيخبر دكتور هاشيموتو هيلدا بأنه في ذلك اليوم قتل مريضة في عملية؟ فكرت في يدي هيلدا البيضاوين وفي رائحة الصابون المنبعثة من قميصها، من أجل محاربة هذه

الرائحة وحدها أسلمت نفسي لدكتور آساي.

في اليوم التالي وحينما ذهبت للمستشفى ناداني دكتور آساي، وقد بدا مختلفاً تماماً عن البارحة وارتسمت نظرة باردة في عينيه.

– يوئيدا ما شأنك مع مرضى العنبر؟

– مرضى العنبر يادكتور؟

– كانت هناك امرأة مصابة باسترواح هوائي تلقائي، أليس كذلك؟ لقد تلقيت مكالمة من السيدة هيلدا قالت إنها أوقفتك عن عمل شيء ما.

– كل ما كنت بسبيلي يادكتور هو ماقلته أنت.

– أنا؟ لم أقل شيئاً.

فيما كنت أتطلع إليه التمع الضوء منعكساً عن عويناته المجردة من الإطار، ارتبك فجأة وأشاح بناظريه، كان هذا هو الرجل الذي لف نفسه في عناد حولي البارحة.

– هل يتعين أن أقدم استقالتي؟

– لم يقل أحد شيئاً عن تقديم استقالتك يايوئيدا!

رسم على شفتيه واحدة من تلك الابتسمات الجذابة التي يجيد افتعالها.

– ولكن حينما تأتي السيدة هيلدا إلى المستشفى قد يكون الأمر محرجاً قليلاً كما ترين، فخذي إجازة لمدة شهر إذن وبعد ذلك أتركي الأمر لأصلح كل شيء!

في ذلك المساء وحينما عدت إلى الشقة لم أستطع العثور على ماسو في أي مكان، سألت صاحب الدار فاكتفى بهز رأسه، كان ذلك هو الوقت الذي بدأ فيه الناس يتضورون جوعاً إلى حد أنهم يذبحون الكلاب ويلتهمونها، وربما أقبل أحدهم وأخذها خلال وجودي بالخارج. جلست للحظة على الدرج المفضي إلى غرفتي، لا أجيد شيئاً إلاّ التحديق أمامي، أحسست أنني لا أكترث بما يحدث من الآن فصاعداً، لم أكترث بدكتور آساسي، رحت أفكر في هيلدا التي اتصلت هاتفياً لتبلغهم برغبتها في طردي، كرهتها، فلكي تتمكن من القيام بدور القديسة وحدها لم تكترث على الإطلاق بما تجشمه من عناء للمرضى والممرضات، أعتقد أنه بالنسبة لها هي القديسة والأم، كانت مضاجعة إنسانة مثلي سلبت كل ما يجعلها امرأة لدكتور آساي شيئاً قذراً، ترى ماذا سأفعل الآن حتى بعد رحيل ماسو؟

كان البقاء بعيداً عن المستشفى لمدة شهر أقضيه وحيدة في غرفتي أمراً مفزعاً، فحينما كنت أعمل كان بمقدوري الابتعاد عن أفكاري القديمة عن دايرين وعن انتظار طفل، ولكن حينما لم يكن هناك ما أقوم به غير الرقاد هناك على الحشية لم أستطع إلا التفكير في يوم موت طفلي، واليوم الذي طردني فيه يوئيدا. بل وفكرت في أنني سأكون سعيدة بمرأى يوئيدا ثانية.

ثم ذات ليلة أقبل آساي مرة أخرى:

– لديّ موضوع أود محادثتك فيه.

– هل طردوني؟

– لا، إنه أمر يتعلق بموضوع خطير.

قالها دكتور آساي وقد ارتسم تعبير حاد على ملامحه، جلس متربعاً على الحشية.

– بالنسبة لي ليس هناك ماهو أكثر خطورة من طردي.

– انظرى، فيما يتعلق بهذا الأمر، فإنني أرغب في عودتك إلى المستشفى.

– هل تريد أن أساعد في شيء ما؟ هل هناك شيء تستطيع إنسانة مثلي المساعدة فيه؟ إذا أردت ممرضة لقتل مرضى فها أنا ذي.

تلك الليلة التي سمعت فيها عن العمليات التي ستجرى للأسرى الأمريكيين، .كان كبير الجراحين نفسه دكتور هاشيموتو ودكتور شيباتا واثنان من الأطباء المقيمين هما دكتور سوجورو ودكتور تودا بسبيلهم للاشتراك فيها، ولكن لم تكن هناك فيما قال ممرضات بعد.

ضحكت وكأني أوشك أن أستشعر وصولاً إلى قمة النشوة ، قلت:

– لذا جئت إليّ!

– الآن لا تأخذي الأمر على هذا المحمل، ستفعلين هذا من أجل وطنك، وعلى أية حال فالأسرى جميعاً حكم عليهم بالإعدام، وبهذه الطريقة فإنهم سيقدمون بعض النفع لعلم الطب. طرح لي دكتور آساي كل الأسباب التي لم يكن هو نفسه يؤمن بها، ثم قال في صوت محرج:

– أتقومين بالأمر؟

– إن القيام به من أجل وطني لايعني شيئاً بالنسبة لي، كما لايعني إتيانه من أجل بحثك

الطبي شيئاً.

لم أكن أكترث بما إذا كانت اليابان ستنتصر في الحرب أو تهزم. ولم أهتم ما إذا كان علم الطب يتقدم من عدمه، كان الأمر سيان بالنسبة لي.

– أتساءل عما إذا كان دكتور هاشيموتو قد أخبر السيدة هيلدا بهذا الأمر؟

– لا تمزحي، ولا تذكري شيئاً لأحد عن هذا، ولا كلمة واحدة، مفهوم؟

فكرت فيما قالته لي هيلدا حينما صرخت في هذا الأصيل بغرفة الممرضات، عن عدم خوفي من الله، فضحكت بيني وبين نفسي، كنت أشعر لو كنت قد فزت، فهي في نهاية الأمر لا تعلم بما سيأتيه زوجها، لكني أعرف.

– السيدة هيلدا، لا، كيف يمكن لكبير الجراحين أن يخبر القديسة هيلدا بالأمر؟

في تلك الليلة وفي أحضان دكتور آساي فتحت عيني، وكان بمقدوري أن أسمع الصوت العميق الكئيب الذي يشبه قرع الطبل، صوت هدير أمواج البحر من جديد، زحفت رائحة صابون السيدة هيلدا لتعاودني من جديد، رحت أحدث نفسي قائلة يدها اليمنى جلد امرأة غريبة بشعر ينمو فوقها، سرعان ما يقطع مبضع جلداً أبيض كجلدها.

– أتساءل ما إذا كان جلد البيض يصعب قطعه؟

– ماذا؟ لا تكوني سخيفة! أجانب، يابانيون، إنه الجلد نفسه. قالها دكتور آساي مغمغماً وهو يتدحرج على الحشية.

لو أن وليدي لم يمت في دايرين، ولو لم أفترق عن يوئيدا، لما كانت حياتي على هذا النحو، هكذا رحت أحدث نفسي.

(٢) طبيب مقيم

في حوالي عام ١٩٥٣ لم يكن في مدرسة روكو الابتدائية على الحافة الشرقية من إقليم كوبي إلاّ تلميذ مسترسل الشعر، وكنت أنا هذا التلميذ. الآن غدت هذه المنطقة منطقة سكنية شاسعة، ولكن في ذلك الوقت كانت المدرسة تحيطها حقول البصل ودور الفلاحين، وكانت قطارات هانيكو المنطلقة إلى أوساكا والعائدة منها تشق هذه الحقول، وكان معظم التلاميذ من

أبناء الفلاحين، وليس من بينهم أحد له شعر مسترسل مثلي، ووسط كتلة الرؤوس الحليقة، كان هناك العديد من الصبية الذين جاؤوا إلى المدرسة، وهم يحملون على ظهورهم أطفالاً صغاراً، وكان الأطفال الصغار يبللون أغطيتهم خلال الفصول الدراسية ويشرعون في البكاء، فيضايقون المدرسين الشبان بلا حدود. كانوا يقولون مشيرين إلى الدهليز: خذه إلى الخارج!

كانت طريقة ارتداء الصبية لملابسهم تختلف عنها في طوكيو، وكانوا يدعون دائماً بالأسماء الأولى، مثل ماسيرو تسوتومو، أو ما إلى ذلك، ووحدي كنت أنادى في الصف الدراسي على نحو مختلف، حيث كنت أدعى دائماً بالسيد تودا، وقد التزم التلاميذ والأساتذة بهذا، ولم يكن هذا يعد شيئاً غريباً. كان ذلك يرجع إلى أنني الوحيد الذي لم يكن من أبناء الفلاحين فقد كان أبي طبيباً، وقد افتتح عيادة على مقربة من المدرسة، هؤلاء المدرسون بياقات سترتهم المحكمة كانوا دون شك يوقرون شخصية لها جلالها كشخصية الطبيب، واللوحة النحاسية التي تحمل الحروف الدالة على نيل بكالوريوس الطب تحت اسمه. وعلى أية حال لم أكن بالفتى القوي، ولكن منذ البداية لم أنل إلا التقديرات الرفيعة التي يرمز لها بالحرف (أ) على بطاقة تقريري المدرسي، وكنت الصبى الوحيد الذي سيواصل استكمال تعليمه، وكل عام دراسي أتولى الدور الرئيسي في المسرحيات والحفلات وما إلى ذلك، ثم حينما أرسم كذلك لوحات للمعارض المدرسية كنت أتلقى الجائزة باعتبارها أمراً مسلماً به. ودون تعمد درجت على عادة خداع الكبار، ولم يكن من بين المخدوعين المدرسون فحسب، وإنما أمي وأبي كذلك. لم أواجه صعوبة تذكر في تبين الأفكار الكامنة وراء عيونهم الجامدة وتعبيرات وجوهم لأقدر أفضل السبل لإسعادهم أو انتزاع المديح منهم، أو القيام في بعض الأحيان بدور البريء وفي أحيان أخرى في دور الطفل الألمعي. كنت أدرك غريزياً وعلى وجه الدقة ما يرغب الكبار في أن يروه في شخصي، أعني مزيجاً من السذاجة والحكمة، ولم يكن من المجدي المبالغة في السذاجة أو الإغراق في الحكمة، غير أن المرء إذا قدم هذه العناصر للكبار بالقدر المطلوب فمن المحتم أن تكون استجابتهم إزجاء المديح. لاينظر شخصي الذي يعكف على الكتابة الآن إلى الشخص الذي كنته في ذلك العهد، أي الصبي الصغير المتوقد ذكاء، باعتباره شخصاً ماكراً بصفة خاصة، وأود أن تفكروا قليلاً في طفولتكم، فكل الأطفال الأذكياء يتمتعون بالنوع نفسه من الخبث، وحينما يحدث في بعض الأحيان أن يرصدوا في أنفسهم توهم المعرفة بأنهم أطفال ممتازون فإن ذلك يرجع على وجه الدقة إلى هذه المقدرة.

في اليوم الأول من الفصل الدراسي الثاني بالصف الخامس أقبل المدرس إلى قاعة الدرس مع صبي صغير كان يضع عوينات ويلف رأسه بعصابة بيضاء، وهي مؤشر لكونه تلميذاً جديداً بالمدرسة، وقف إلى جوار منصة المدرس مائلاً برأسة إلى أحد الجوانب كأنه فتاة ومحدقاً في

بقعة الأرض. قال المدرس الذي التف زنار أصفر حول أعلى سراويله موجهاً حديثه لنا بصوت عالٍ، وقد وضع كفيه على مؤخرته:

– أيها التلاميذ، إليكم صديقاً جديداً قدم من مدرسة في طوكيو، فعاملوه معاملة حسنة وإلا ستندمون على ذلك! ثم كتب على السبورة اسم مينورو واكابياشي.

– أنت يا أكيرا هل تستطيع أن تقرأ اسم الصبي؟

سادت قاعة الدرس موجة من الاضطراب، راح التلاميذ خلالها يختلسون النظر نحوي، كان السر في ذلك أن هذا الفتى واكابياشي كان مسترسل الشعر شأني تماماً، حدقت في العصابة الملفوفة حول رأسه بشعور يمتزج بشكل أو بآخر بالعداء والغيرة، وفيما كان يرفع عويناته التي انزلقت على أنفه إلى أعلى اختلس النظر فجأة إليّ، ثم نكس ناظريه سريعاً من جديد.

– أيها التلاميذ لقد أحضرتم اليوم موضوعات الإنشاء التي كتبتموها عما فعلتموه خلال الصيف، أليس كذلك؟ أيها السيد واكابياشي اجلس على هذا القمطر واستمع، أولاً اقرأ أيها السيد تودا موضوعك!

كان سماعه يقول السيد واكبياشي لطمة قاسية لكبريائي، فهذا الأسلوب في النداء في هذا الصف الدراسي كان حتى اليوم امتيازا قاصراً عليّ وحدي.

نهضت كما أمرت، وبدأت، في قراءة موضوع الإنشاء الذي كتبته، كنت دائماً في هذه اللحظة استشعر سروراً خاصاً، فقد كانت قراءة موضوع انشائي باعتباره نموذجاً أمام العالم شعوراً مجيداً، لكنني اليوم أحسست بالاضطراب فيما كنت أقرأ وأثقلت على أعصابي عوينات التلميذ الجديد الجالس في أحد الجوانب، فقد جاء من مدرسة بطوكيو وله شعر مسترسل وياقته بيضاء وملابسه حديثة الطراز. غمغمت لنفسي قائلاً: لن أخسر السباق!

حينما كنت أكتب موضوع إنشاء، كنت أحرص على وضع علامتين أو ثلاث علامات باللون الأحمر الفاقع، فقد كانت هذه الزخرفة الفجة هي على وجه الدقة ما يبتهج لمرآه أكثر من غيره المدرسون الشبان الذى تخرجوا لتوهم من كليات التدريب، كنت قد لفقت مشهداً في موضوعي، قصد به أن يكون طرحاً للنقاء الساذج وللعاطفة الطفولية. لم أعده على وجه الدقة عامداً وإنما لانتزاع المديح من هذا المدرس الشاب الذي كان قد قرأ لنا مختارات من قصة «العصفور الأحمر» لمؤلفها ميكنشي سوزوكي.

– ذات يوم وخلال العطلة الصيفية، سمعت أن السيد كيمورا مريض، فحدثت نفسي

بأن أذهب لزيارته.

هكذا بدأت مطالعة موضوع الإنشاء بصوت عال أمام الجميع، وحتى هذا الموضع كان ما حدث حقيقياً، ولكن ما أعقب ذلك كان بصورة مميزة من بنات أفكاري، فقد اخترت كهدية للسيد كيمورا صندوقاً يضم عينات من الفراشات، وبذلت مجهوداً كبيراً في جمعها، وانطلقت في طريقي إلى داره، وفيما كنت أسير عبر حقول البصل خطر لي فجأة أن الصواب ربما جانبني فيما اخترته، ومرات عديدة أوشكت على التوقف والعودة إلى الدار، لكني أخيراً وصلت إلى دار السيد كيمورا، ثم بعد أن رأيت الفرح المرتسم على وجهه أحسست بالسلام يغمر فؤادي وما إلى ذلك.

قال المدرس، وقد ارتسم تعبير الرضا البالغ على وجهه بعد انتهائي من القراءة متطلعاً حوله إلى وجوه الأطفال في قاعة الدراسة:

– عظيم، الآن ما هو الشيء الطيب بصفة خاصة في موضوع إنشاء السيد تودا؟ أي جزء؟ ألا يعرف أحدكم؟ من يعرف يرفع يده!

رفع تلميذان أو ثلاثة بملء الثقة أيديهم، تبين أن ما ردّوا به وما اندفع المدرس في قوله هو ما توقعته على وجه الدقة، كان قد حدث بالفعل أنني قدمت مجموعة فراشات إلى فتى يدعى ماسيرو كيمورا، ولكن ذلك لم يكن لتشجيعه في مرضه، وكان من الصحيح كذلك أنني سرت عبر حقول البصل المليئة بالجناديب التي راحت تصدر أصواتها المتميزة، ولكنني لم أندم قط على إعطاء المجموعة له لماذا؟ لأن كل ما توجب عليّ فعله هو أن أطلب من ابي ابتياع ثلاث مجموعات أخرى مثلها تماماً، ولم يبتهج كيمورا بشكل خاص بهذه المجموعة، وكان ما فكرت فيه في ذلك الوقت هو مدى القذارة التي تتردى إليه بيوت الفلاحين، وما شعرت به هو إحساسي بالتفوق.

– أكيرا حدثنا برأيك!

– أعتقد أن قيام السيد تودا بإعطاء مجموعة الفراشات، وهو شيء له قيمته حقاً لماسيرو، هو عمل بالغ الكرم.

– نعم، نعم، بالطبع كان كذلك ولكن... ماهو الشيء الجيد في موضوع الإنشاء؟

أمسك المدرس بقطعة من الطباشير وشرع في الكتابة على السبورة، وكتب الحروف الصينية الثلاثة التي تشكل كلمتي «مرهف الضمير».

- حينما كان يسير عبر حقول البصل أحسّ بالأسف حول إهدائه الفرشات، وذلك هو النحو الذي كتب الموضوع به، وجميعكم تكتبون في بعض الأحيان أكاذيب في مواضيع إنشائكم، ولكن تودا كتب بصراحة على وجه الدقّة ما يشعر به، هذا هو معنى رهافة الضمير.

رحت أحدق في الأشكال الثلاثة المرسومة على السبورة والتي تعني مرهف الضمير. من مكان ما في إحدى قاعات الدرس تناهى صوت عزف أرغن، حيث كانت جوقة البنات تعكف على التدريب، لم يثقل على ضميري قط أنني كذبت أو خدعت المدرس ورفاق الدراسة، فعلى هذا النحو كنت دائماً أتصرف في المدرسة أو الدار، وبهذه الطريقة أصبحت معروفاً بأنني فتى طيب والتلميذ الأول في الصف الدراسي.

اختلست نظرة جانبية إلى الصبي الجديد ذي الشعر المسترسل، الذي كان يحدق في ثبات نحو السبورة، وقد انزلقت عويناته على أرنبة أنفه. ترى هل شعر بنظرتي؟ على أية حال فقد التفت برأسه ذات العصابة البيضاء ونظر ناحيتي، رحنا للحظات نحدق أحدنا في الآخر كأنما يمحص كل منا وجه صاحبه، فاحمرت وجنتاه قليلاً، وتلاعبت على شفتيه ابتسامة واهنة، بدت ابتسامته وكأنها تقول لي على وجه الدقة: لقد خدعت الجميع أليس كذلك؟ والسير عبر حقول البصل والشعور بالأسف حول إهداء الفراشات تلك كلها أكاذيب، لقد أفلحت في القيام بها بمهارة ولكن رغم أنها قد جازت على الكبار إلا أنك لاتخدع فتى قادماً من طوكيو.

أشحت بناظري بعيداً، أحس الدم يتدفق مندفعاً حتى أطراف آذاني، توقف عزف الأرغن، ولم يعد صوت الفتيات يتناهى في غمار الغناء، وتأرجحت الحروف المكتوبة على السبورة أمام ناظري.

منذ ذلك الوقت بدأت ثقتي بنفسي تتداعى تدريجياً، كان واكابياشي قريباً مني في الصف الدراسي أو في فناء المدرسة، أحسست بنوع من الإذلال غير المرئي يحلق فوقي، وبالطبع لم تهبط علاماتي الدراسية بسبب هذا، ولكن حينما كان المدرس يشيد بي أمام الجميع وحينما كانت لوحات بخطي أو بريشتي تعلق على الجدار، وحينما اختارني زملائي عضواً في مجلس المدرسة كنت أختلس مرغماً نظرة إلى عينيه.

حينما أفكر الآن في التعبير المرتسم في عينيه أدرك أنهما لم تكونا عيني قاضٍ يتهم، ولم تكونا عيني ضمير يهدد بالعقاب، لم يكن الأمر إلا موضوع تلميذين يشتركان في السر نفسه الذي غرست فيه بذور الشر، فكل منهما يرى في الآخر صورة لذاته، وكان ما أحسست به في ذلك الوقت ليس تأنيب الضمير، إنما الإذلال النابع من اطلاع آخر على سر المرء.

لم يكن يلهو مع أحد قط، وخلال أوقات الاستراحة وحينما كان الجميع يلعبون الكرة

كان يقف وحيداً في أحد أركان الفناء منحنياً على أرجوحة ومحدقاً تجاهي، وخلال فصول التربية الرياضية كان بوسع المرء أن يرى رأسه ذات العصابة البيضاء على مبعدة فيما هو يقف مطلاً، وحينما كان الصبية يحدثونه كان يرد بإجابات فاترة من نوعية «لست أكترث بالأمر» أو «لا أعرف» وعلى الرغم من أن شعره كان طويلاً كشعري، وكان يرتدي ملابس أبناء المدينة فإنه حينما أدرك الفتية الآخرون أنه ليس قوياً ولا ممتازاً في عمله الدراسي شرعوا في السخرية من وجهه الشاحب كوجوه الفتيات، وفي النهاية فقدت بدوري خوفي منه ونسيت ذلك الإذلال الذي شعرت به في اليوم الأول.

ثم ذات يوم أقدم اثنان من أبناء الفلاحين على مضايقته، وكنت قد انتهيت لتوي من مهام الإشراف بعد اليوم الدراسي وبسبيلي إلى مغادرة مبنى المدرسة في طريقي إلى الدار، حينما شاهدت التلميذين ويدعيان ماسيرو وسوسومو وهما يجذبان شعره إلى جوار الحفرة الرملية، راح يجادلهما، لكنه تلقى الضربات واللطمات ووجهه في الرمل، وحينما حاول النهوض ألقياه أرضاً من جديد، وفيما كنت أرقب هذا المشهد لم يخطر ببالي قط أن أحاول وقفهما، ولم أستشعر شفقة نحوه على الإطلاق، وإنما وددت أن يلطمه ماسيرو وسوسومو بشدة ويمضيان في جذب شعره، لم أكن قد لاحظت أن أحد المدرسين قد أطل من نافذة فجأة ولذا وقفت في مكاني أرقب الصراع للحظات أطول، لكن ما إن أدركت أن المدرس يقبل عبر الدهليز نحو المدخل حتى اندفعت في الحركة تواً، وانطلقت عدواً إلى حفرة الرمال.

صحت، مدركاً تمام الإدراك أن المدرس خلفي، بأعلى صوتي:

– توقفوا ! توقفوا! ماسيرو لاينبغي عليك أن تضايق تلميذاً جديداً، انتظر إلى أن يحضر

المدرس! حينما التفت ماسيرو وسوسومو وشاهدا المدرس مقبلاً تضرج وجهاهما بالحمرة، وكان الفتى لايزال راقداً في الرمل.

– ياسيد واكيباشي، ما الذى حدث؟ أأنت بخير؟

حينما رفع الفتى وجهه أنارته شمس الأصيل وتألقت على حبات الرمل الملتصقة به، كانت عويناته التي التوى إطارها قد سقطت في الرمل، وحينما مضيت لأزيح الرمل عن وجنته بكفي، أشاح بوجهه جانباً ونحى يدى كأنها شيء دنس.

– ماذا؟ ألا زلت تريد العراك؟ رغم أنني أوقفته من أجلك؟

ودون تفكير ضممت قبضتي في حنق، ولكن في هذه اللحظة عينها أدركت أن

المدرس كان الآن واقفاً إلى جانبي. غمغمت وكأنما أحدث نفسي:

- ماسيرو، مرة أخرى!

- الآن فيم كل هذا ياسيد تودا؟

إنه ماسيرو ياأستاذ... والسيد واكاباشي هنا. قلتها متعثراً ومتردداً رغم أنفي، أضفت:

- ما إن رأيت العراك حتى اندفعت لإيقافه.

وعندئذ وفيما كنت أستجمع سيطرتي على نفسي وأشرع في القيام بأحدى أدواري التمثيلية المعتادة، راح الفتى الذي أضاءت شمس الأصيل وجهه لا ينظر تجاهي أو ناحية المدرس، وإنما في اتجاه آخر شارداً. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى وجهه دون عوينات، فتصاعد بداخلي الشعور المقيت بأنه دون شك ها هنا كان يقف أمامي شخص بمقدوره اكتناه أسرار فؤادي.

- أحسنت صنعاً أيها السيد تودا، وأنتما أيها الاثنان ماسيرو وسوسومو لو أنكما كنتما مثله، ألا تريان الطريقة التي....

كان ضمير الغائب في حديثه عائدا إليّ، وفيما راح المدرس الساذج يقرّع المذنبين، مضى الفتى ملتزماً الصمت يزيح الرمل عن وجهه، ويلتقط حقيبته القماشية التي كانت جائمة على الأرض. انطلق مبتعداً، كمن لاشأن له بالأمر.

في الربع التالي انتقل واكابياشي إلى مدرسة جديدة. في ذلك اليوم، وعلى نحو ما حدث في اليوم الأول لوصوله، أحضره المدرس وقد التفت العصابة البيضاء حول رأسه أمام الغرفة وجعله يقف إلى جوار المنصة، وكما حدث في اليوم الأول، كتب على السبورة، لكن في هذه المرة كانت الكلمة التي كتبها هي: «أشيو».

- يوشي ماسا، أي نوع من الأماكن هي أشيو؟

لم يحر يوشي ماسا جواباً.

- وأنت ياتوميو؟

- نحاس، إنه مكان يستخرج فيه الناس معدن النحاس.

- هذا صحيح، خلال الشهور القليلة الماضية أصبح السيد واكابياشي صديقاً طيباً لنا، ولكنه الآن وبيسبب عمل والده سيرحل مع عائلته إلى أشيو، وهكذا فإن اليوم هو آخر يوم

يقضيه في هذا الصيف.

في مناسبات كهذه كان المدرس يصبح، فجأة تجسيداً لروح الاهتمام الرقيق، أما بالنسبة لي، فقد رحت أفكر في ذهاب هذا الفتى إلى مدينة أشيو النحاسية العارية ذات التلال المجردة من الأشجار والمداخن التي تتسخ رقعة السماء بتأثير ما تنفثه، هنالك سيقف منكساً رأسه ناظراً إلى الأرض كأنه فتاة، وستلتف حول رأسه، كما هي الآن. عصابة بيضاء.

– ياسيد تودا باسم الصف ودع السيد واكاباشي!

– وداعاً أيها السيد واكاباشي!

التزم الصمت، ولكن فيما كان يغادر قاعة الدرس في نهاية اليوم، وكأنما كان يلتف برأسه ذات العصابة البيضاء، تحول فجأة ونظر وراءه نحوي، ومرة أخرى ارتسمت السخرية الواهنة تلك على شفتيه.

عقب ذلك نسيت أمره، على الأقل كنت أرغب في ذلك، في البداية كان المطر الذي يجلس عليه خاوياً منعزلاً، ولكن البواب حمل ذلك القمطر بعيداً، ومن ثم لم يعد هنالك شيء يذكرني به ولم تبق حاجة لاختلاس نظرة إلى ذلك الوجه. من جديد عدت الفتى الطيب، ومرة أخرى عدت أطالع موضوعات إنشائي بصوت عال حازم فينهال عليّ مديح المدرس.

حلت الإجازة الصيفية، وذات يوم قرب الظهيرة حينما كان الحر في سمته كنت أسيراً وحيداً عبر حقول البصل قرب المدرسة والجنادب تحدث وسط النجيل صوتها الحاد، وعلى مبعدة في الطريق عكف رجل يبيع الحلوى المثلجة على المضي قدماً بعربته المقرقعة.

فجأة عاودني التفكير في موضوع الإنشاء الذي كتبته في الصيف الماضي، كتبت أقول إنني جلبت مجموعة فراشات لفتى مريض يدعى كيمورا، وكنت قد كتبته لغرض صريح هو مطالعته بصوت عال أمام الجميع، ووضعت تلك العلامات الحمراء التي تذكرتها من قصة «العصفور الأحمر» لأسعد المدرس، وكان الوحيد الذي أدرك السر هو واكابياشي.

تحولت عن طريقي، عدت عدواً إلى داري، بحثت عن أفضل أقلامي، القلم الذي أحضره أبي لي من ألمانيا، وضعته في جيبي، وانطلقت عدواً إلى دار كيمورا.

– هاك، خذه، إنه لك.

– إيه؟

وقف كيمورا أمام حظيرة الأبقار، تراجع قليلاً، نقل نظرته بمكر من وجهي المغطى

بالعرق إلى القلم.

– ماذا تعني بقولك «إيه؟» هل تريده أم لا؟ إنه قلم جيد. أليس كذلك؟

– طيب... إذا كان هذا هو ما تريده... سآخذه.

– عظيم، ولكن في البداية أصغ إليّ، لا تخبر أحداً بأنني أعطيتك إياه، لا أحد من أسرتك، لا أحد. أتفهم؟ لا أحد.

فيما كنت أمضي عبر حقول البصل عائداً إلى الدار، كنت أفكر في أنني أخيراً قد هربت من ذلك الذي جعلني خلال ستة شهور أشعر بالإذلال من جراء السخرية التي ارتسمت على وجه ذلك الفتى.

مضت الجنادب، وكأن شيئاً لم يحدث، تبث الأعشاب شكواها بصوت عال. كان بائع الحلوى المثلجة قد أوقف عربته، ومضى يتبول إلى جوار الطريق. كان قلبي معتماً فارغاً، لم يكن هناك أدنى شعور بالابتهاج، ولم يكن هناك أقل أثر للفرحة والرضا اللذين يفجرهما العمل الطيب في القلب.

لست بالفتى الوحيد الذي ساورته مثل هذه الأفكار في طفولته، فربما كنت أنت على الحال ذاته أياً كان مدى اختلاف أفكاري عن أفكارك، ولكن ربما ما يميزني هو مواصلة التفكير على هذا النحو، ومطاردة أفكار من هذا القبيل لي، أم تراك أنت بدورك تعمر فؤادك تجارب خبيئة كهذه؟

كانت المدرسة التي التحقت بها بعد ذلك هي المدرسة الوسيطة على الحافة الشرقية لكوبي، كانت واحدة من تلك المدارس التي خلطت منذ وقت طويل بين هدف التعليم وبين الإنجاز الملموس المتمثل في دفع نسبة عالية من تلاميذها عبر امتحانات الالتحاق بالصف الأول من الجامعات، وهكذا ارتدينا زّينا الرسمي ذا اللون الكاكي، ولم يكن لنا هم طوال خمس سنوات إلاّ مصارعة التمرينات الرياضية والذهنية وغيرها من الدراسات التمهيدية لاجتياز امتحانات الالتحاق بالجامعة. قسم كل صف دراسي إلى ثلاثة أجزاء أ، ب، جـ، وفقاً لمستوى الذكاء، وكان التقسيم داخل الصف يوضع رمزه على حافة الياقة الملتفة على أعناقنا فارزاً إيانا كالسجناء على نحو لا خلاص منه. في هذه المدرسة هبطت إلى مستوى المجموعة ب التي تضم طلاباً غير مجدين، ولم يكن الأمر راجعاً إلى أنني أهملت دراساتي إلى حد كبير، ولكن الفتية من حولي على عكس أبناء الفلاحين في روكو جميعاً ينتمون إلى بيئة مماثلة لبيئتي، وكانوا مثلي قادرين على استشفاف أفكار المدرسين وقراءة أفكار من يحيطون بهم.

كان أبي طبيباً، لذا قررت أن أصبح بدوري طبيباً. لم تحركني أي نزعة انفعالية أو مثالية، وإنما كانت لديّ منذ الطفولة قناعة بأنه فيما يتعلق بأفضل الطرق لضمان كسب العيش، كان السبيل أن أصبح طبيباً، ثم هناك أيضاً كما أخبرني والدي واقع أن كون المرء طالب طب يعطيه ميزة في الفحص الذي يسبق أداء الخدمة العسكرية.

خلال دراستي التمهيدية للطب، وجدت أن التاريخ الطبيعي هو الموضوع الأكثر إثارة للاهتمام، وقد تحدثت من قبل عن مجموعة الفراشات وعن كيمورا، وحتى بعد دخولي المدرسة الوسيطة كانت أعظم مسراتي تتمثل في جمع الحشرات وحقنها بمخدر، ووضعها في وعاء تنبعث منه رائحة النفتالين.

كنا نلقب أستاذ التاريخ الطبيعي بلقب «أوكوزي» أو سمكة النمر، لأنه بعظام جبينه الناتئة كان يشبه هذه السمكة، كان يقف أمامنا بحلته البالية الواسعة عند الركبتين وطارقاً بعينيه الصغيرتين بحدثنا كيف أنه كرّس حياته بكاملها لدراسة الحشرات في منطقة جبل روكو. كنت في ذلك الوقت طالباً في الصف الرابع. وبعد أن ألقى محاضرة حول وصف أنواع الفراشات التي عثر عليها في منطقة أوساكا كوبي أحضر من قاعة النماذج صندوقاً زجاجياً صغيراً ملفوفاً في قماش للحمل.

– الآن هذه وكما ترون أمسكت بها قبل عام قرب المجرى الأعلى لنهر آشيا.

طارفاً بعينيه، رفع الصندوق الزجاجي عالياً إلى يديه الناحلتين، وتطلع إلى وجوهنا.

لم يسبق لي قط أن شاهدت مثل هذه الفراشة الغريبة، الجناحان الهائلان مشدودان مثل قوس، والجسم الهش الثري المتضخم، بدوا كلاهما متألقين ببريق فضي، كان هناك قرنا استشعار فحسب ببيضاوان كخيوط الحرير الخام، بشكل ما خطر ببالي أنها تشبه فتاة راقصة جميلة، رشقت ريشات بيضاء في شعرها وغطى جسمها ذرور فضي، وامتدت ساق في خفة كأنها توشك أن تثب في الهواء.

– تغير أحيائى كما ترون بالطبع، ومع جمالها الفريد قال دكتور ماتسوزاكى الأستاذ بجامعة كيوتوا الامبراطورية «أعطها لي!» لكني لم أسلمها.

خلال حديث أوكوزي راح يداعب الصندوق الزجاجي مراراً وتكراراً بكبح حزين للنفس. طوال ذلك الأصيل ظلت الفراشة الفضية تتألق عبر مخيلتي، لم أسمع شيئاً مما قيل في قاعة الدرس على وجه التقريب، أحسست بشيء يحاكي الشهوة إلى حد كبير، أردت أن أحظى بمتعة غرس إبرة في ذلك الجسم الفضي المؤتلق.

كالمعتاد مضيت لدى انتهاء الدروس مجتازاً بوابة فناء المدرسة مع صديق، ولكن في هذه اللحظة تماماً تذكرت أنني تركت صندوق طعام الغذاء الخاص بي في قاعة الدرس، ودون تعمد واع، عدت وحدي إلى هناك. كانت شمس الأصيل تنهل على القطرات والمقاعد المتربة المهجورة، وتتناثر على الأرض، بدا الدهليز ساكناً، مضت خطواتي نحو قاعة النماذج لدراسة التاريخ الطبيعي، دفعت الباب فلم أجده موصداً. كانت الظروف مناسبة أتاحتها فرصة غير عادية وإن كانت مخيفة. في القاعة التي تفوح منها رائحة النفتالين، لمعت الشمس الغاربة على الرفوف الزجاجية التي رتبت عليها في نظام مناسب، الصناديق المحتوية على أنواع الصخور والنباتات والحشرات كافة، رحت أحدق في الصندوق الصغير الملفوف في قماش الحمل الأسود الذى أعده أو كوزي، التقطت الصندوق مسرعاً والقيت بالقماش الأسود على الأرض، ودفعت به في حقيبة كتبي القماشية، لم يكن بوسع أحد أن يراني، من جديد فتحت الباب خلسة، ودلفت إلى البهو الذي كان على حاله مهجوراً تماماً.

حينما أقبلت إلى المدرسة في اليوم التالي كان الفتية في صفي الدراسي يتحدثون همساً في شيء ما.

– يا أو كوزي العجوز؟ لقد مضى أحدهم بفراشته.

– لا داعي للمزاح! أحدهم أخذها؟

شعرت بوجهي يتصلب رغماً عني، أشحت بناظري بعيداً.

– لكنهم أمسكوا بالفتى الذي فعلها. ياماجوتشي في الصف «ج» فقد رآه البواب خارجاً من باب قاعة التاريخ الطبيعي بعد انتهاء الدروس.

لمع وجه ياماجوتشي الصغير الذي يشبه وجه القرد في ذهني. كان في الصف «ج» أدنى مراتب الدراسة،وقد اكتسب لنفسه سمعة لاينازعه فيها أحد بأنه مهرج الصف، وما يتسق مع هذه الصفة من شعبية مفعمة بالازدراء، قالوا إن ياماجوتشي هو الذي فعلها.

– إذن فقد استردوا الفراشة؟

– لا، لا، يبدو أنه فقدها في مكان ما، ياله من غبي!

واصلت طوال اليوم التطلع من نافذة قاعة الدرس إلى الملعب، حيث كان شبح ياماجوتشي المثير للشفقة يقف، وفي كل مرة أختلس نظرة كان عليّ أن التقط أنفاسي، فهناك كان يتلقى العقاب بدلاً مني، لماذا لم ينكر كل شيء أمام المدرسين؟

في ذلك الأصيل بدا كأنه قد تهالك متداعياً، كان يتهافت وقد تهدل كتفاه. ولأخفف من تأنيب ضميري صغت نظرية في هذا الصدد: وماذا إذن! يالغبائه! لماذا ذهب إلى هناك إذا لم يكن يرغب في سرقة شيء ما، إنه غبي لذا ترك نفسه يسقط في أيديهم ولو أنهم لم يمسكوا به لأفلت مثلي.

في ذلك اليوم، وحينما عدت للدار من المدرسة أخرجت الفراشة من صندوقها، وأشعلت ناراً في الحديقة، من الأجنحة التي توهجت واحترقت كالورق اندفعت ذرة الذرور الفضي بعيداً، انسابت مع النسيم، تبددت واختفت عن العيان في لحظة، في تلك الليلة شعرت في فراشي بألم حاد في إحدى اسنان الجانب الأيمن من فكي، وعاودني شبح ياماجوتشي مراراً أو تكراراً في أحلامي.

في اليوم التالي أقبلت إلى المدرسة معانياً من آلام ضرسي المتورم. أمام البوابة رأيته وافقاً، وقد التف حوله جمع من أصدقائه يتحدثون يضحكون حول شيء ما، وفي الحال شرعت في السير على مهل.

– ياله من ضرس يتعين خلعه!

بعد أن مررت بهم كان لايزال بمقدورى سماع أصواتهم تتناهى من ورائي. طوال يوم واحد على الأقل، عامل الصف «ج» ياماجوتشي كبطل صغير، وعكف هو على أداء الدور سعيداً، موضحاً الأمر بحركات من جسده وإشارات يديه.

– ياللعجوز أوكوزي! لقد انهار تماماً، حقاً كان الأمر مضحكاً.

– هيه، ياماجوتشي، ماذا فعلت بالفراشة؟

– الفراشة؟ آه لقد ألقيتها في إحدى الترع.

من العجب أنني في اللحظة التي استرقت فيها السمع إلى هذه الكلمات تبدد بسرعة خاطفة كل ما عانيته منذ أمس الأول من تأنيب الضمير وضع النفس والمخاوف، أما ما هو أكثر غرابة من هذا فإن ألم ضرسي ذاته قد خف. رحت أحدث نفسي قائلاً إنه إذا كان هذا هو الوضع فإني لم أحرق تلك الفراشة الفضية في نهاية الأمر. هكذا جلست على نحو ما كنت أمس الأول وكل الأيام السابقة مسترخياً في قاعة الدرس مدوناً الملاحظات، وكان مصدر الإزعاج الوحيد لي هو أنني نسيت إحضار حقيبة الأدوات الرياضية معي إلى المدرسة.

أياً كان المنهاج الذي تختار تسجيل مثل هذه التجارب به، فليس بمقدورك قط أن تصل

إلى الموضوعية، فلسوف تلقى دوماً ظلاً من الاكتراث، وبمقدور المرء إذا مضى مستعرضاً تجارب كهذه من طفولتي ويفاعتي، أن يصفها بأي عدد يشاء من الطرق، وكل ما فعلته في الحقيقة هو أن قمت باختيار حادثة أو حادثتين تمثلان في ذهني باكبر قدر من الحيوية والتألق.

على الرغم مما كتبته فإنني لا انظر إلى نفسي باعتباري شخصاً أصاب الشلل ضميره منذ وقت طويل، فكما سبق لي القول كان تقريع الضمير منذ الطفولة مساوياً للخوف في أعين الآخرين، الخوف من العقاب الذي يمكن أن ينزله بي المجتمع، لم أنظر لنفسي بالطبع باعتباري قديساً، لكنني شعرت بأن كل صديق لي هو في حقيقة الأمر مثلي. ربما كان الأمر راجعاً إلى ضربة حظ أو إلى سلسلة لم تنفصم عراها من ضربات الحظ، ولكن ما حدث هو أن شيئاً مما ارتكبته لم يبد جديراً بالعقاب، أي أن كل أعمالي لم تجلب لي قط نقمة المجتمع.

فعلى سبيل المثال ثمة وصمة عار تدمغ الزنا. حينما كنت أدرس العلوم في ثانوية نائيوا بأوساكا ارتكبت هذه الخطيئة، ولكن رغم ذلك فإن هذه التجربة لم تترك ندوباً، لم أعان منها، وإنما مضت حياتي هادئة كعهدها، وكشخص سيغدو طبيباً في المستقبل كنت أمضي إلى المعمل كل يوم وأفحص المرضى، لم يساروني شعور بالشفقة ولا التعاطف نحوهم، وإنما أحسست بقدر هائل من الرضا، وكنت أتقبل ثقتهم، وأصغي إليهم وهم ينادونني يادكتور!

وفي الوقت الذي اقترفت فيه الزنا لم أظهر لنفسي بمظهر الخائن الذي لا قلب له، كان هناك بعض الأسف، قليل من عدم الارتياح، وبعض الازدراء للذات، ولكن ما إن أتيقن من أن أحداً لم يكشف سري حتى ينزاح هذا بعيداً، أما تقريع ضميري، فلم يدم في أقصى الأحوال مايزيد عن الشهر.

كانت المرأة التي اقترفت الزنا معها ابنة خالي، وكانت تصغرني بخمسة أعوام، وبينما كانت تدرس بكلية خاصة بالفتيات مكثت لبعض الوقت في دارنا، ربما كانت تتذكر جيداً إقامتها مع أسرتي، لكنني لا أستطيع استرجاع التفاصيل، وكل ما يتناهى إلى ذهني عنها على نحو ما كانت في ذلك الوقت هو شعرها المجدول في ضفيرتين تتدليان على ظهرها، وأسنانها التي كانت ناصعة البياض حينما تبتسم، وغمازة على خدها الأيمن، وقد تزوجت فور تخرجها، ولم أرها لوقت طويل، وتخرج زوجها من جامعة خاصة في أوساكا، وعمل لحساب تاجر جملة في أوزو على ساحل بحيرة بيوا.

ولكن ذات صيف وحينما كنت أدرس العلوم في نانيوي خطر ببالي أن أمضي لزياراتها في أوزو، هكذا مضيت وشعرت على نحو حاد بخيبة الأمل، قد تحولت إلى امرأة أثقلت الدنيا على كاهلها، لم يكن قد مضى على زواجها إلا عامان، ولكن من الإعياء المرتسم على

ملامحها بدت كأنها امرأة قهرتها الدنيا وطغت عليها تماماً، وكانت الدار الصغيرة ذات الغرف الثلاث ربما لقربها من البحيرة تفوح بالرطوبة التي جعلت الرائحة المنسابة من المرحاض أشد ضراوة في زكمها للأنوف. كان زوجها رجلاً غائر العينين موظفاً مجرداً من الروح.

لما يكن هناك شيء آخر أقوم به فقد مضيت للسباحة في الأصيل، وفي المساء بذلت جهدي لاحتمال البخور الذي يفترض أنه يطرد البعوض، لم يكن أمامي خيار إلاّ أن أتصفح بعض المجلات العتيقة أو أن أفتح المراجع التي أحضرتها معي، وعلى الجانب الآخر كان بمقدوري سماع ابنة خالي وزوجها يتجادلان بأصوات خفيضة، كانت تقرّعه بلا رحمة لافتقاره إلى سعة الحيلة.

– لماذا لاتبدي شيئاً من النشاط ؟ لو أنك تركت ذلك المكان أليس بمقدورك الحصول على وظيفة في مكان آخر؟

كان بمقدوري سماع صوت الزوج الهادئ المهموس واضحاً كصوتها وهو يقول:

– لا ترفعي صوتك هكذا، فسوف يسمعنا!

وكان بوسعي كذلك سماع سعالهما المتباعد وارتشافهما لأقداح الشاي.

– لقد ضقت ذرعاً، لقد ضقت ذرعاً.

بعد أن مضى الزوج إلى عمله في صباح اليوم التالي، جلست ابنة خالي متقاطعة الساقين على حشية، تنهدت بعمق، وشرعت في تمشيط شعرها المشعث.

– يالها من حياة! لامعنى لزواج الفتاة بمجرد تخرجها.

رددت عليها بأقل مما كان حرياً بي من الصراحة.

– لكنه ليس شخصاً سيئاً حقاً، أليس كذلك؟

كنت قد عقدت العزم في اليوم السابق على مغادرة الدار في أقرب فرصة تسنح. وفي تلك الليلة اضطر زوج ابنة خالي لقضاء الليل في مكتبه، ولم يعد للدار. بعد أن انتهينا من عشاء كئيب، لم يبق أمامنا ما نفعله، لذا أصغيت حتى الساعة العاشرة إلى مسلسل طويل من شكاوى ابنة خالي، ثم في منتصف الليل سمعتها تبكي، ردّد الليل صدى صوت ارتطام الأمواج المقبل من البحيرة، وكانت الرطوبة ضارية على وجه خاص. سمعت صوت ابنة خالي المكدود يتناهى إليّ:

– تسويوشي، هل لك في القدوم من فضلك؟ إنني أشعر بصداع فظيع.

ما كان بوسعي قط تصور أن السيء الذي كان محط فضولي ورغبتي في مثل هذا الوقت الطويل سينجلي عن مثل هذه التجربة الخاوية الكئيبة.

– لاتقل لأحد! إذا وعدت بألاّ تقول فامض في الأمر قدماً!

هكذا، ودونما عاطفة، وبغير تسامٍ ودعت حياة العفة. في صباح اليوم التالي عاد الزوج إلى الدار مكدود الملامح.

– تسويوشي، ستأتي حافلتك عما قريب.

قالتها ابنة خالي مستحثة إياي على الإسراع، لاحظت تجعدات ألم بين حاجبيها.

– جيرو، سيرحل تسويويشي الآن.

هكذا غادرت الدار حاملاً حقيبة كتبي. كان ماء البحيرة أسود متسخاً تطفو على سطحه أحذية مطاطية، ونثار من صوف، وفيما كنت أسير على شاطئ البحيرة لم يراودني شعور بعينه لا بالاستثارة ولا بالإحباط، كنت أعرف أن ابنة خالي لن تتحدث عما حدث البارحة، وطالما أنها تحتقر زوجها فلن تعترف قط بأنها أساءت إليه، هكذا إذن أحسست بالارتياح ومدركاً أن السر لن يكشف النقاب عنه قط.

غمغمت محدثاً نفسي: «كم هو فظيع أن يضطر المرء للعيش في مكان صغير قذر كهذا، لم تكن البارحة إلا تعويضاً جزئياً» أحسست بأنني لم أستفد من الأمر على الإطلاق، ولم يثر ضيقي التفكير في أنني شخص مقيت سيظل طوال حياته بأسرها يحيا كشخص خان رجلاً آخر، بل في الحقيقة حينما مر بذهني وجه الزوج غائر العينين لم أشعر إلاّ بالازدراء نحوه.

إذن، فقد كان هذا اقترافي للزنا، وابنة خالي الآن أم لطفلين، وليس لديّ فكرة عما إذا كانت تعاني من تأنيب الضمير بسبب تلك الليلة من عدمه، وفي أغلب الأحوال فإنها لاتعاني منه، ولكن على أية حال لم يحدث حتى اليوم أن باحت بكلمة لزوجها، لذا فهو لايزال جاهلاً بالأمر، وبفضل جهله فإنها تحتل اليوم مكانها في المجتمع كزوجة وأم تماماً كما احتل مكاني كطبيب مقيم.

لكنها ليست مسألة زنا فحسب، وليست مسألة شعوري غير الكافي بالذنب، ذلك أن تحجر فؤادي يمتد إلى مجال آخر، وربما كان من الضروري أن أحدثكم بجلية هذا الأمر كله أيضاً، فبمقدوري صراحة أن أظل هادئاً في مواجهة معاناة الآخرين بل وموتهم، فقد ألقت حياتي كطالب طب بي طوال سنوات عديدة وسط المعاناة على نطاق كبير، وشاهدت أناساً

يلقون حتفهم في فراشهم، ورأيتهم يموتون تحت مبضع الجراح، وإذا كانوا قد التفتوا إليّ فما أجداهم ذلك شيئاً.

– دكتور! أرجوك! أعطني حقنة مخدر!

يئن المرضى الذين أجريت لهم عمليات جراحية لعلاج السل دونما توقف، ورغم أن عائلاتهم تتوسل إليّ بأعين دامعة لعجزها عن تحمل الآلام فإنني كان بمقدوري دوماً أن أهز رأسي قائلاً: «فالمزيد من المخدر سيكون بالغ الخطورة». ولكن ما كنت أفكر فيه حقاً هو مدى الضيق والمتاعب التي يثيرها هؤلاء المرضى وعائلاتهم.

يموت مريض فيقبل الأب والأم والأخوات ويأخذون في النحيب، فأصطنع ملامح توحي بالحزن والتعاطف، ولكن ما إن أمضي في الدهليز حتى يغيب المشهد عن ذهني، ويبدو أن البقاء في المستشفى خلال تتابع مشاهد الحياة اليومية مقيم تختفي معه كل آيات التعاطف والإشفاق التي يمكن أن أستشعرها نحو هؤلاء الناس إلى حد التلاشي.

هل يرجع أي شعور عاجل بالمسؤولية من جانبي نحوه إلى هذا السبب، كانت ميتسو الخادم التي تعنى بشأن غرفتي حينما كنت أقطن في حي بتاكوين في فوكوكا، كانت فتاة من إقليم ساجا في كيوشو الغربية وقد استأجرت حينما كنت طالباً في الصف الثالث بكلية الطب داراً صغيرة لكلينا، كان أبواها قد ماتا في طفولتها، وأسرتها لاتضم إلاّ أختها و أخاً أكبر منهما، وذات يوم سمعت مستاء ميستو تتقيأ في المرحاض، لم يطف بخيالي شعور بالقلق نحو هذه الفتاة التي دمغت حياتها، وإنما أن أبواب الجحيم ستنفتح عليّ مطالبة بالإنفاق إذا ما ولد لي طفل منها.

لازلت أذكر بوضوح ماحدث في تلك الليلة، فلو أن أدنى انزلاقة وقعت لتحول الأمر إلى قتل للفتاة، فقد كان الإجهاض بالغ الخطورة من حيث الطريقة المتبعة فيه. تعللت بعذر أو بآخر واستعرت الأجهزة الضرورية من صديق لي يدرس علم التوليد، وبيدي أخرجت الجنين. لم يكن لدى لرؤية ما أقوم به إلاّ مصباح كهربائي نقال، هكذا قمت والعرق يغللنى بجذب كتلة اللحم الدموية الصغيرة بعيداً. كنت أعتزم ألا أدع أحداً يعلم بسوء التقدير التعيس هذا، وألاّ أدمر حياتي بأسرها بسبب فتاة كهذه. لم يمس مشهد ميتسو، وهي تعاني فيما كانت مستندة إلى الحائط، وقد خلا وجهها من الدم، وضغطت على أسنانها لتتحمل الألم، شيئاً داخلي على الإطلاق، وحينما أفكر في الأمر فإن مثل هذا الاجراء المرتبك وغير الصحي كان من شأنه أن يسبب التهاب الصفاق.

بعد شهر بعثت بها إلى مسقط رأسها، وانتقلت من الدار المؤجرة في باكوين إلى فندق

صغير أتناول فيه وجباتي فضلاً عن السكنى، واستخدمت عذر عدم حاجتي إلى الخدم، وحقيقة الأمر أنه لم يعد بمقدوري احتمال النظر إليها، وفيما كانت العربة العتيقة تتباعد عن المحطة ظلت ميتسو ضاغطة وجهها إلى النافذة الزجاجية. كان يوماً غائماً ضبابياً والقطار يختفي في الغمام، ويتعين عليّ أن أقول إنني تنفست الصعداء، وفيما كنت أفكر قليلاً في معاناة ميتسو الجالسة هناك، وجهها ملتصق بالنافذة قلت لنفسي: «لقد فعلت شيئاً سيئاً» ،مع ذلك لم يكن الشعور بالندم حاداً.

يتعين عليّ كتابة هذه المنطقة وكتابة المزيد، وقد سبق لي أن أكدت فكرتي القائلة بأنني لا أكتب عن هذه التجارب كرجل مسوق إلى هذا بتأثير ضميره، فموضوع الإنشاء وسرقة الفراشة وتركي ياماجوتشي يتلقى اللوم، واقتراف الزنا مع ابنة خالي ومسألة ميتسو، تلك كلها ذكريات مقيتة بالنسبة لي، ولكن النظر إليها باعتبارها قضية شيء يختلف تماماً عن المعاناة بسببها.

إذن فلماذا أكترث بالكتابة؟ لأنني أشعر على نحو غريب بعدم الارتياح، إنني أنا الذي لايخشى إلا عيون الآخرين وعقاب المجتمع والذي تتبدد مخاوفي حينما أشعر بالأمان منها يراودني الآن إحساس بالاضطراب.

حينما أقول «إحساس بالاضطراب» فإن هذا القول ربما تضمن مبالغة، وربما كان الأنسب أن أقول أشعر بالاستغراب. هناك شيء أريد توجيه السؤال فيما يتعلق به، ألا تشعر أنت أيضاً في أعماقك بعدم الاكتراث لمعاناة وموت الآخرين؟ ألسنا جميعاً متساوين في هذا الشعور؟ ألم تعش بدورك حياتك حتى الآن دون تجاوز في تجريم نفسك ودون شعور بالعار؟ ثم ألا يساورك بدورك خاطر بأنك غريب قليلاً.

وقع ذلك بالنسبة لي ذات يوم في بداية هذا الشتاء، كنت أرقب في تكاسل فوق سطح المستشفى الطائرات بـ ٢٩ وهي تقصف فوكوكا. كنت وسوجورو مراقبين، وكان واجبنا الصعود إلى السطح خلال الغارات الجوية، كان الهجوم في ذلك اليوم ضارياً، وفي وقت قصير للغاية تصاعدت السحب بالدخان الأبيض من كل أحياء فوكوكا، وحيثما خفت حدة هذا الدخان كان بمقدورنا أن نلمح ألسنة اللهيب تندلع. دارت مجموعة من الطائرات عالية في السماء طوال نصف ساعة قبل أن تتجه عائدة إلى البحر، وفي الغرب لاح التشكيل التالي كأنه بذور خشخاش عديدة متناثرة، وحينما قفلت عائدة أقبلت كمجموعة ثالثة. عمّ الدخان وألسنة اللهيب قاع المدينة ومقر الحاكم الإقليمي ومكاتب الصحيفة والمتجر الرئيسي واحدة إثر الأخرى، بدا ذلك وكأنه يحدث على مقربة منا حتى خيل إلينا أن بوسعنا أن نمد أيدينا فنمسه.

حينما حل المغيب اختفت طائرات العدو أخيراً. بدا سكون مخيف وكأنه يهبط من

الأعالي، كانت السماء تكتسي لوناً ضبابيا متسخاً، وإذا أرهفت السمع لغدا بمقدورك أن تسمع إلى جوار قرقعة ألسنة النار صوتاً آخر عميقاً كئيباً ناضجاً بالصدى، في البداية لم أدرك وجوده شرعت تدريجياً في ملاحظته، ضجة عجيبة كأنها صوت أنين يتناهى من البعيد.

سألت سوجورو:

– ما هذا؟

أصغى سوجورو بمزيد من الاهتمام، قال:

– صوت المباني تنهار، أليس كذلك؟ لا، ليس كذلك، إنها الريح المنبعثة من انفجارات القنابل.

ولكن لو أنه كان صوت انهيار المباني لكان أكثر عنفاً، ولو كان صوت الريح التي يولدها انفجار القنابل فمن غير المحتمل أن يظل لمثل هذا الوقت الطويل بعد الغارة. لم يكن هناك شك في أنه يحاكي أصوات عدد كبير من الناس يئنون، كانت مثل هذه الأنات شيئاً مألوفاً للطبيب، الضيق، الأسف، المرأة، اللعنات، كل هذه العناصر تشكل أنات الإنسان، وأياً كان مصدر هذا الصوت فإن نغمته كانت على هذا النحو. همست لسوجورو:

– إنه أصوات المحتضرين جراء الغارة.

لم يحر سوجورو جواباً، وإنما وقف هناك طارفاً بعينيه.

عند هذا الحد، وغارقاً في الإعباء والضيق من كل شيء، نسيت أمر الأصوات، ولكن في تلك الليلة بينما كنت راقداً في فراشي راحت الأنات المستطيلة الجوفاء تتناهى إلى سمعي، في البداية خلتها ضجيج الأمواج. حيث لم يكن المستشفى بعيداً عن البحر، لكن صوت البحر كان يأتي من الناحية الأخرى.

في تلك اللحظة طفت في ذهني ذكريات المدرسة في روكو والشمس الغاربة المتألقة في قاعة التاريخ الطبيعي بمدرستي الوسيطة، وشبح ياماجوتشي المتعب واقفاً في الفناء، والصباح الذي سرت فيه على شاطئ بحيرة بيوا، والليلة الرطبة الحارة التي احتضنت فيها ابنة خالي بين ذراعي، وعينا ميتسو وهي تضغط وجهها على زجاج النافذة في عربة الدرجة الثالثة بالقطار. لست أدري لماذا حدثت نفسي في تلك اللحظة بأنني سألقى عقابي ذات يوم، أحسست بإلحاح حاد بأنني ذات يوم سيتعين عليّ التكفير عما فعلته حتى الآن في حياتي. كان ذلك وقتاً يبتلع فيه الناس حتى الفناء كل يوم في رحاب الدخان وألسنة اللهيب، ووحدي واصلت دونما

اكتراث الحياة دون أن يحيق بي عقاب، كأنني لم أرتكب ذنباً، ولم يبد ذلك لي شيئاً قويماً، ولكن حتى هذه الفكرة التي تلح عليّ الآن ليست بالتي تجلت لي ألماً كبيراً في أعقابها، بدت وكأنها شيء مسلم به، وكحقيقة جلية، وهكذا جثمت في أعماقي مثلما أن واحداً وواحداً يشكلان اثنين، يشكلان أربعة.

هكذا كان الأمر، فحينما طرح دكتور شيباتا ودكتور آساي ذلك الأمر علينا، جلست محدقاً في ألسنة اللهيب الزرقاء المنبعثة من المجمرة، وحدثت نفسي قائلاً « ترى هل يطاردني قلبي مجرّماً إياي بعد هذه الفعلة؟ هل سأرتجف خائفاً لتحولي إلى قاتل؟ أن أقدم على قتل كائن بشري بعد أن اقترفت هذه الأمور الفظيعة جميعها، هل سأظل أعاني طيلة حياتي؟».

رفعت ناظريّ، كانت الابتسامات ترتسم على شفاه دكتور شيباتا ودكتور آساي، لم يكن هذان الرجلان في النهاية يختلفان عني، وحتى حينما يحل يوم الدينونة لن يخافا إلاّ عقاب الدنيا... عقاب المجتمع، أحسست بإعياء عميق، لا يسبر له قرار منبعثاً من حيث لا أدري، دخنت السيجارة التي أعطاني إياها دكتور شيباتا، ونهضت واقفاً. سألني:

– هل تشارك؟

– نعم.

هكذا ردّدت بصوت لايتجاوز الغ

(٣) الساعة الثالثة من بعد الظهر

كان الخامس والعشرون من فبراير يوماً معتماً ينذر الثلج فيه بالهطول أي وقت. بينما كان سوجورو يغسل أسنانه بالفرشاة في غرفة سكنه الداخلي، رمق وجهه خلسة خلال انعكاسه في المرآة، كانت عيناه حمراوين جراء البرد الذي أصابه، والأرق الذي لازمه، بدا وجهه شاحباً ومنتفخاً، لكنه كان بالأساس الوجه المكتئب ذاته، الذي كان يصافحه طوال تلك السنين التي سبقت هذا اليوم.

– ها قد حل اليوم، اليوم هو اليوم.

قالها سوجورو وكأنه يحدث نفسه بمعلومات جديدة، ورغم ذلك فإنه لم يستشعر انفعالاً ولا عاطفة عميقة تختلج في أعماقه، وبدا ذهنه على نحو غريب بعيداً عن الاضطراب.

أقبل طالب مقيم. بالسكن الداخلي إلى المغسل ومرتدياً ملابس العمل، قال:

– صباح الخير، يبدو أن الثلج سيهطل، أليس كذلك؟

ردّ سوجورو مواصلاً تنظيف أسنانه بالفرشاة:

– بلى، يبدو كذلك، هل لديك عمل تطوعي اليوم ياتكاهاشي؟

– العمل بالمصنع يجري ليلاً، وأنطلق إلى هناك في الأصيل، ماذا عنك يادكتور سوجورو؟

– سأغادر المكان في خلال لحظة.

كان سوجورو يتناول دائماً في طعام الإفطار ما هو موجود في غرفة الطعام بالمستشفى، لذا شرع في الانطلاق نحو كلية الطب، ماضياً على الطريق الذي تجعد سطحه والتوى بتأثير الجليد، وخلال مسيره كان يتوقف بين الفنية والفنية مع غوص خطواته في الأرض شبه المتجمدة، مرت الكلمات التي قالها تودا ليلة أمس بذهنه: «إذا كنت تفكر في الرفض فما زال الوقت متاحاً لذلك».

الآن لو أنه غيرّ طريقه وسار عائداً إلى السكن الداخلي... نظر خلفه، حدّث نفسه بأن ذلك هو الشيء الذي يتعين القيام به، لكن الطريق امتد أمام ناظرية متزلقاً بالجليد في بريق فضي كئيب. وإذا ما واصل السير عليه فسيصل به البوابة الرئيسية للمستشفى.

أمام البوابة صادف كبيرة الممرضات أويا، كان يعرف أنها بدورها ستشارك في تشريح الأحياء، كانت ترتدي «مونبيه» وفيما كانت تمر به ألقت نظرة سريعة عليه بوجهها الذي يبدو خالياً من التعبير كقناع نوح، لكنها عندئذ أشاحت بناظريها بعيداً على نحو مفاجئ بالطريقة ذاتها التي نظرت بها إليه، وغذت السير متهدلة الكتفين قليلاً. حينما فتح باب المعمل وجد تودا قد وصل وجلس إلى مكتبه وظهره نحو الباب، لم يلتفت حينما دلف سوجورو داخلاً، ولم يتوجه بالحديث إليه كان يعكف بملامح جادة على نحو غير مألوف على كتابة شيء مافي مذكرة. كان عقرب الساعة العتيقة الموضوعة على المكتب يشير إلى الساعة التاسعة، وكان المقرر أن يبدأ التشريح في الثالثة من بعد الظهر.

طوال اليوم وحتى الساعة الثالثة، لم يتبادل تودا وسوجورو كلمة واحدة، وبينما كان تودا يقوم بجولات العنابر ظل سوجورو الذي لم يكن لديه شيء يفعله جالساً إلى مكتبه. في الأيام الأخرى وحينما يصل إلى المعمل، كانت هناك دوماً أعمال عديدة يتعين القيام بها فلماذا

يسود اليوم هذا الشعور بأن كل شيء مستقر ومنتظم؟ لم يكن هناك ما يتعين القيام به، أحسّ بأن ليس هناك ما يشغله، على الإطلاق، غيرما كان سيحدث في الثالثة بعد الظهر. هكذا وحينما عاد تودا إلى المعمل نهض سوجورو، مضى إلى القاعة كأنما خطر بباله شيء، وحينما عاد بعد لحظة وجد أن تودا قد ترك مذكرته على المكتب، ومضى إلى مكان ما، كان أحدهما يتجنب الآخر وينأى عن فرصة تبادل الحوار.

ولكن أخيراً وقرب الساعة الثالثة، وفيما كان سوجورو على وشك الخروج سدّ تودا الطريق عليه عند الباب.

– لماذا كنت تتجنبني؟

– لم أكن كذلك.

– لا مفر على وجه اليقين، أليس كذلك؟

حدق في وجه سوجورو للحظات، ثم حينما أدرك سخافة سؤاله، ابتسم ابتسامة مريرة ملتوية. وقفا معاً على هذا النحو أمام الباب، ساد صمت رهيب هذا الجناح في المستشفى، راح المرضى ينتظرون انتهاء فترة الهدوء دون أن يخطر ببالهم ما سوف يحدث خلال نصف ساعة، لم يتردد صوت في غرفة الممرضات كذلك.

غير أنهما حينما صعدا الدرج إلى غرفة العمليات بالطابق الثاني. بعد قليل تبدد المناخ القاهر على نحو مؤلم فجأة، بل في الحق ردّد الدهليز الضحك، كان أربعة أو خمسة من الضباط الذين لم يسبق قط لسوجورو وتودا أن شاهداهم يقفون أمام النوافذ ويدخنون السجائر، ويتبادلون النكات بأصوات عالية، بدوا كما لو كانوا ينتظرون تقديم الغداء لهم في نادي الضباط.

– تجاوزت الساعة الثالثة والنصف، أليس كذلك؟ ولم يحضروا الأسرى بعد.

طرقع الضابط الطبيب اللحيم القصير الذي كان في غرفة دكتور شيباتا في ذلك اليوم لسانه، بينما كان يفتح علبة آلة تصويره. ردّ ضابط يداعب شاربه الذي كان في طور النمو ناظراً إلى ساعته:

– ينص الأمر على أن يتم اصطحابهم من المبنى المخصص لهم منذ نصف ساعة، لذا كان ينبغي أن يكونوا هنا منذ وقت طويل.

قال الضابط الطبيب باصقاً على الأرض وداهساً بصقته بحذائه.

– أعتقد أنني سألتقط بعض الصور الجيدة اليوم.

قال الضابط ذو الشارب محاولاً الفوز بالحظوة قدر الإمكان:

– إنك تعرف حقاً كيف تستخدم إحدى هذه الكاميرات، أليس كذلك ياسيدي؟ إنها كاميرا بديعة.

– آه، الكاميرا إنها صناعة ألمانية، وفضلاً عن هذا فسوف يقام حفل وداع للملازم أوموري في قاعة الطعام في المستشفى، ويقولون إن التجربة ستنتهي في الساعة الخامسة، لذا فقد جعلنا موعد الحفل الخامسة والنصف.

– وماذا عن الطعام؟

– طيب، وماذا غيره، بفضل الأسرى سيكون بمقدرونا أن نتغذى بقطعة من الكبد الأمريكية.

أغرق الضابط في الضحك بأصوات راعدة دون أن يلقوا نظرة تجاه تودا وسوجورو. كان باب غرفة العمليات مفتوحاً، ولكن العجوز ودكتور شيابا وآساي لم يكونوا قد وصلوا بعد. بدأ الضابط الطبيب اللحيم حاكاً مؤخرته في رواية إحدى قصصه:

– تعلمون أنه في الصين... ليست هذه مزحة فقد علمت أثناء خدمتي أن مجموعة فتحت جوف أحد الصينيين وجربت تناول كبده.

قال الضابط ذو الشارب بوجه متألق في تواطؤ العارف:

– يقولون إن طعمها طيب بصورة مذهلة.

– طيب، ماذا تقول؟ فلنجرب، في طعام الغداء اليوم.

وفي تلك اللحظة أقبل آساي وئيداً عبر الدهليز وعويناته المجردة من الإطار تلتقط الضوء كعهدها، تبادل الحديث مع الضابط بجاذبيته المعهودة.

– نعم، ولكن شيباتا، أين هو؟

– سيحضر خلال لحظة، لا داعي للاستعجال أيها السادة!

ومع قوله هذه أشار بيده إلى سوجورو وتودا اللذين استندا إلى الجدار كأنما يستمدان منه العون ضد الوقر الذي يثقل عليهما.

– أقبلا إلى هنا لحظة!

بعد أن استدعاهما إلى غرفة العمليات، أغلق الباب.

- أكان عليهم الحضور أولئك الأوغاد! سيحس المرضى بأن شيئاً ما يوشك أن يحدث، ولكن على أية حال وفي المقام الأول لم يتم تحذير الأسرى فيما يتعلق بما سيحدث فهم يعتقدون أنهم جلسوا إلى هنا لإجراء فحص طبي قبل أن يرسلوا إلى المعسكر في أوتيا.

بعد أن قال هذا وشي بشعوره بعدم الارتياح، التقط أنبوبة أثير من الرف، وقال:

- أريدكما أن تهتما بالمخدر. موافقان؟ اليوم هناك أسيران، أحدهما جرح في كتفه، ولن نلقى صعوبة معه فسوف نعطيه مخدراً لعلاجه، ولكن الأمر سيكون مربكاً إذا فعلنا أي شيء يثير شعور الآخر بالخطر، لذا فحينما يقبلان سأتظاهر بأنني أفحصهما، وأخيراً سأطلب منهما أن يرقدا على منضدة العمليات لأتمكن من فحص قلبيهما.

- سيتعين علينا تقييدهما، أليس كذلك وإلا فإنهما سيقومان خلال الفترة الأولى للتخدير.

- بالطبع، بالطبع ياسوجورو لقد اعتدت بدورك على مراحل المخدر أليس كذلك؟

- بلى، يادكتور!

كانت هناك ثلاث مراحل قبل أن يتخدر المريض كلية، أضف إلى هذا لما كان المريض يشعر بهياج سريعاً جراء هذا النوع من المخدر فقد كان من الضروري المداومة على المراقبة على امتداد العملية. كانت تلك هي المهمة التي عهد بها إلى سوجورو وتودا.

- ماذا عن العجوز دكتور شيباتا؟

- إنهما يرتديان معاطف الجراحة في الغرفة السفلى، وحينما يسرى مفعول المخدر سأدعوهما، أما إذا كان الجميع هنا منذ البداية فمن المحتمل أن يشعر الأسرى بالخطر.

ساور سوجورو وهو يستمع شعور بأنه ليس هناك ما هو غير مألوف في العملية التي يوشك على المشاركة فيها، كانت كلمة «أسير» هي وحدها التي تدفعه خارج نطاق ذلك الوهم، جثم عليه إدراك أنه قد وصل أخيراً إلى النقطة التي يتعين عليه فيها إما أن يمضي قدماً أو ينتحي.

- إننا نوشك على أن نقتل رجلاً.

شرعت موجه مظلمة من الخوف والاستياء، فجأة، في اجتياحه، تشبث بمقبض الباب، كان بمقدوره أن يسمع صدى ضحك الضباط على الجانب الآخر، بدت أصواتهم الضاحكة

وكأنها ترتطم بقلبه لتسد عليه طريق نجاته منتصبة كحائط غليظ في طريقه. سرعان ما يبدأ دفق الماء المتألق تحت الضوء الساقط من مصباح السقف في التدفق عبر أرضية غرفة العمليات منساباً في خفة متأهباً لإزالة دم المريض. انتزع آساي وتودا سترتيهما وحذاءيهما، وشرعا في ارتداء معطفيهما الجراحيين وانتعال خفيهما الخشبيين.

فُتح الباب، أطلت مقبلة كبيرة الممرضات أوبا، ووجهها يحمل تعبير قناع نوح كعهده، وبصحبتها ممرضة تدعى يوئيدا، كانت تلك المرأة بدورها تبدو مكفهرة مع أوبا، وهما تفتحان صناديق الأدوات وتشرعان في وضع المشارط، المقصات، الورق المكسو بالزيت، قطن الامتصاص على المنضدة الزجاجية قرب منضدة العمليات. لم ينبس أحد ببنت شفة، وكان كل ما بمقدور الآذان أن تسمعه هو أصوات الضباط المثرثرين في الدهليز وخرير الماء الذي بدأ يتدفق لتوه.

راح سوجورو يتساءل، لماذا تشترك الممرضة يوئيدا إلى جوار كبيرة الممرضات في تشريح الأحياء، فلم تكن موجودة بالمستشفى منذ فترة طويلة، ولم يقدر لسوجورو الاتصال بها خلال قيامه بجولاته، لكنه كان يحس أنها امرأة سوداوية المزاج، تحدق دائماً في شيء ما في البعيد.

فجأة توقف الضحك في الدهليز، نظر سوجورو إلى أحد الجوانب حيث كانت تودا، وقد أفعمت عيناه بالخوف، لكن تودا كان على حاله، ورغم أن الألم قد خالج التعبير المرتسم على ملامحه فقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه كأنما هو يتحدى.

فتح باب غرفة العمليات، أطل الضابط ذو الشارب النامي الذي كان يعكف على التطلع إلى ساعته من قبل، ودفع برأسه الحليق إلى الغرفة.

– هل كل شيء على ما يرام؟

– أحضر واحداً منهم من فضلك! قالها آساي بصوت مشدود، أضاف:

– كم هناك منهم؟ أهم اثنان؟

–اثنان.

استند سوجورو إلى الجدار، وعندئذ رأى أسيراً طويلاً ناحلاً يقبل إلى الغرفة كأنما دفع إليها دفعاً، تماماً كالأسرى الآخرين الذين سبق لسوجورو أن رآهم خارج مدخل القسم الثاني للجراحة، كان هذا الرجل يرتدي زياً واسعاً لا يناسبه، أخضر اللون مرقشا. حينما نظر إلى سوجورو والآخرين في معاطفهم الجراحية ابتسم ابتسامة مكبوتة، ثم حدق في جدران الغرفة

البيضاء.

– اجلس هنا!

قالها آساي بالإنجليزية، مشيراً إلى مقعد، فثنى الرجل بارتباك ساقيه الطويلتين، وجلس في ثقة.

كان سوجورو قد شاهد عديداً من الأفلام التي قام ببطولتها جاري كوبر، كان هذا الأمريكي الأسير يشبه في وجهه وطريقته في التحرك إلى حد ما ذلك الممثل. حينما نزعت كبيرة الممرضات أوبا سترته، رأى سوجورو أنه يرتدي قميصاً تحتياً يابانياً بالياً، ولاح اللون الكستنائي الغليظ لشعره من خلال ثقوب القميص. حينما مدّ دكتور آساي يده باحثاً عن سماعته، أغمض الأسير عينه كأنما في استياء، ولكنه اشتم عندئذ الرائحة التي ملأت الغرفة. صاح متعجباً:

– تلك رائحة أثير أليس كذلك؟

– هذا صحيح، إنه لعلاجك.

تناهى صوت آساي كأفضل ما يستطيع، وإن ارتجفت مقاطعه قليلاً، ارتعشت يده التي تمسك بالسماعة. بدا أن المريض قد غدا أكثر استرخاء مع تقدم الفحص، وراح يتبع تعليمات آساي طائعاً، كان واضحاً من عينيه الزرقاوين الرقيقتين وتتابع ابتسامته الودية أنه لم تراوده أدنى شكوك في سوجورو والآخرين، بدا أن الثقة التي يضعها البشر في الأطباء كانت كافية لإراحته، فيما كان آساي يدلي بإيضاحه الخاص بفحص القلب أشار إلى منضدة العمليات فرقد الأسير عليهاطائعاً. تساءل تودا مسرعاً:

– أطواق التقييد؟

– بعد لحظة، بعد لحظة. قالها آساي محافظاً على انخفاض صوته، أضاف:

– لو أنكم قيدتموه الآن لبدا الأمر مثيراً للسخرية، حينما تحل المرحلة الثانية أو إذا حدثت أي تقلصات فقوموا بتقييده تواً.

قالت كبيرة الممرضات أوبا مطلة برأسها من غرفة الانتظار:

– يتساءل الضباط عما إذا كان بمقدورهم الدخول.

– لا، ليس بعد، سأخبرك فيما بعد، جهز قناع المخدر ياسوجورو!

– لا، لا أستطيع يادكتور آساي!

تداعى صوت سوجورو أو كاد، أضاف:

– دعوني أخرج، أريد أن أخرج.

نظر آساي عبر عويناته المجردة من الحواف مدققاً لكنه لم ينبس ببنت شفة.

– سأعده أنا يا دكتور آساي!

قالها تودا وقد حل محل سوجورو، ووضع طيات من الورق المغموس في الزيت والقطن على القناع الموضوع على شاشة من الأسلاك.

حينما رأى الأسير هذا، بدا كما لو كان يوشك على طرح سؤال ما، لكن دكتور آساي رسم سريعاً ابتسامة على شفتيه، أومأ بيديه، ثم وضع القناع على وجه الأسير. بدا الأثير السائل يتقاطر عليه، فحرك الأسير رأسه من جانب لآخر كأنه يحاول خلع القناع.

– ثبتوا الأطواق! الأطواق!

انحنت الممرضتان فأحكمتا وضع الأطواق الخاصة بمائدة العمليات على ساقي الأسير وجسده.

– المرحلة الأولى.

همست به الممرضة يوئيدا متطلعة إلى المؤشر، خلال هذه المرحلة يعمد المريض غريزياً إلى المقاومة حين يشعر بوعيه ينساب بعيداً عنه. قال آساي آمراً، وضاغطاً بيده على الأسير: أوقفوا تدفق الأثير!

شرعت أنة شبه حيوانية تند من تحت القناع، كانت تلك هي المرحلة الثانية للمخدر، وخلال هذه المرحلة يزمجر بعض المرضى غاضبين أو ينخرطون في الغناء، لكن هذا الأسير لم يأت شيئاً إلا إصدار آنات متطاولة ومتقطعة بصوت يحاكي صوت كلب ينبح في البعيد.

– يوئيدا، أحضري السماعة!

التقط آساي السماعة من يوئيدا، وسارع بوضعها على صدر الأسير كثيف الشعر.

– يوئيدا، أعيدي تدفق الأثير مرة أخرى!

– حاضر يادكتور!

– النبض ينخفض.

أطلق آساي يدي الأسير، فتهالكتا على مائدة العمليات إلى جانبه، وعندئذ شرع آساي في فحص عينيه بمصباح كهربي قدمته له كبيرة الممرضات.

– لا انعكاس في القرنية، عظيم، هذا هو المطلوب، سأمضي في طلب العجوز ودكتور شيباتا. انتزع دكتور آساي سماعته، ووضعها في جيب معطفه، أضاف:

– أوقفوا الأثير الآن، فسوف يلقى حتفه إذا أعطيتموه الكثير منه، وسيكون ذلك أمراً مربكاً، آنسة أوبا، أعدي كل الأدوات من فضلك!

ألقى نظرة فاترة في اتجاه سوجورو، وغادر غرفة العمليات. عادت الممرضات إلى غرفة الانتظار، ونفذتا ما أمر به آساي، انعكس البريق المزرق من مصباح السقف على الجدران. فيما كان سوجورو يستند إلى الجدار راح تيار الماء يتدفق بلا هوادة حوله خفية، وقف تودا وحيداً إلى جوار الأسير الراقد على مائدة العمليات. فجأة تحدث تودا بصوت خفيض:

– تعال هنا ألن تقدم المساعدة؟

غمغم سوجورو قائلاً:

– لافائدة، لافائدة، على الإطلاق، لا أستطيع، كان... ينبغي أن أرفض من قبل.

التفت تودا وحدق في سوجورو، قال:

– إنك أحمق، ماذا ستقول لنفسك؟ لو أن الأمر كان أمر رفض، لكان الأمس أو حتى هذا الصباح وقتاً مناسباً، أما الآن وقد قطعت هذا الشوط، فقد تجاوزت منتصف الطريق ياسوجورو.

– منتصف الطريق؟ ما الذي تعنيه بمنتصف الطريق؟

قال تودا بهدوء:

– لقد دُمغت بالميسم ذاته الذي دُمغنا به، ومنذ الآن فصاعداً ليس هناك مهرب، لا مهرب على الإطلاق.

«تنازل الرب بوذا ذات يوم... بزيارة تابع له كان مريضاً، كان التابع يعاني من مرض خطير لأنه كان عاجزاً عن إخراج بوله أو غائطه، فقام الرب بوذا بسماحته بزيارته، وسأله: هل قمت

حين كنت في سمت صحتك بالسهر إلى جوار أسرة أصدقائك المرضى؟ الآن ها أنت ذا تعاني على هذا النحو الفظيع مريضاً، لأنك لم ترع الآخرين من قبل، الآن هل تشعر بحدة الألم؟ حينما تعبر العالم الآخر، ستعذب بآلام لن يحتملها فؤادك».

أمسكت ميتسو آبي بالصفحات التي تشبه أطرافها آذان الكلب، وراحت تقرأ للرجل العجوز القابع في الفراش المجاور لها، والذي كان أحد مرضى الضمان الاجتماعي، كان الفراش هو ذاته الذي رقدت فيه السيدة العجوز حينما لفظت أنفاسها الأخيرة قبل أسبوع في الليلة التي أعقبت الغارة، لم تكن الساعة قد تجاوزت الرابعة ومع ذلك كان العنبر كئيباً، وطالعت ميتسو كأفضل ما تستطيع على الضوء الخافت المنسل من النوافذ. نحت الكتاب جانباً، وراحت تحدث العجوز:

– لن يقوم دكتور سوجورو بجولته اليومية في العنبر، فهناك عملية جراحية أو شيء من هذا القبيل، انظر، ينبغي عليك أن تحدث الطبيب أيضاً، فقد بذل جهدا طيباً للغاية من أجل المرأة التي كانت في هذا الفراش قبلاً.

أصغى العجوز كالطفل فيما راح يحتسي قدح شايه في الفراش.

كانت قد شعرت بضعف بالغ قبل أن يجري لها عمليتها، فلفظت أنفاسها الأخيرة تلك الليلة التي أعقبت الغارة الكبيرة، وكانت ترغب بشدة في أن تواصل الحياة لترى ابنها مرة أخرى، بينما كان الابن بعيداً يقاتل في مكان ما في غمار الحرب.

ردّ العجوز في إعياء ممسكا القدح بكلتا يديه:

–هذا هو شأننا، لا نستطيع أن نكف عن فعل شيء، لكن الأمور جميعاً سواء.

نهضت ميتسو من فراشها، مضت إلى النافذة. كانت الريح تهب عاصفة في الحديقة، لكن العجوز ذا الحذاء كان لايزال عاكفاً على العمل بمجرفة يواصل الحفر في التربة السوداء. ندت عنها تنهيدة، غمغمت دون أن توجه حديثها إلى أحد بعينه:

– ياإلهي! إلى متى تستمر هذه الحرب؟ متى ستضع أوزارها؟



الجزء الثالث

قبل أن يطل الفجر

(١)

أقبل العجوز والدكتور شيباتا في الساعة الثالثة مرتدين معطفي جراحة، وقد أخفت الأقنعة الطبية ملامحهما أو كادت. التف حولهما الضباط، توقف العجوز للحظة عند العتبة، ألقى نظرة على سوجورو الذي كان لايزال مستنداً إلى الجدار على حافة الانخراط في البكاء، أشاح بناظريه سريعاً، ودلف إلى الداخل. في أعقابه تدفق الضباط بقوة انهيار جبلي، ولكنهم بدورهم تردّدوا للحظة حينما لمحوا الأسير الراقد على منضدة العمليات.

ابتسم آساي ساخراً ابتسامة واهنة، وقال:

– تقدموا ياسادة! تحركوا إلى الأمام قليلاً من فضلكم! يقيناً أنكم كسادة عسكريين اعتدتم منظر الجثث. بعد أن قاموا بما أشار إليه تساءل الضابط ذو الشارب النامي ومازال على إصراره على تملق رؤسائه:

– إيه، أنت، هل هناك ضير في التقاط بعض الصور خلال العملية؟

– كلا بالطبع إننا سنلتقط بعض الصور، سيأتي أحدهم من القسم الثاني للجراحة بكاميرا سينمائية من طراز ٨مم، فالتجربة يقيناً تجربة هامة.

تدخل الضابط الطبيب القصير اللحيم الذي ترك «الغنيمة» في غرفة دكتور شيباتا مشيراً بإصبعه إلى رأسه الحليق:

– ما هو عمل اليوم؟ هل ستقطعون هنا؟

– لا، لا جراحة في فصوص المخ، سيقوم دكتور كاندو ودكتور أراجيما غداً بهذا النوع من التجارب على أسير آخر.

– إذن ستعملون على الرئة فقط؟

– نعم يا سيدي، أعلم أنه ما من حاجة لشرح أي شيء لكم كضابط طبيب، ولكن لإرشادكم أيها السادة الآخرون الذين تفضلتم بالمشاركة اليوم سأشرح باختصار ما نحن بسبيلنا القيام به. إن التجربة التي سنقوم بها اليوم على هذا الأسير هي تجربة بسيطة، وموضوعها بحث الدرجة التي يمكن المضي إليها في بتر الرئة في جراحات السل، أي مشكلة المدى الذي يمكن للمرء الذهاب إليه في بتررئة رجل دون قتله، وهذه المشكلة هي إحدى المشكلات المزمنة في علاج السل، وكان لها تأثير كذلك على ممارسة الطب في زمن الحرب، وبالتالي فإننا نعتزم أن نبتر تماماً إحدى رئتي هذا المريض والجزء العلوي من الرئة الأخرى، أي بإيجاز

شديد...

بينما كان صوت آساي بهيج المقاطع يتردد صداه، مرتداً عن جدران غرفة العمليات، وقف العجوز منحنياً قليلاً في تيار الماء المنساب عبر الأرض، بدا بكتفيه المتهدلين في ملمح غريب مؤلم يدفع المرء للحزن، ووحدها كبيرة الممرضات أوبا أبقت على جمود ملامحها، حملت بعضاً من الميكروكروم إلى مائدة العمليات، شرعت في صبغ جانب الأسير، فلطخ السائل بالحمرة عنقه القوي وصدره وثدييه الذين يغيطهما شعر كستنائي اللون، وإلى أسفل راحت معدته البيضاء، التي لم يمسها السائل بعد، تعلو وتهبط. فيما كان تودا ينظر إلى هذه المعدة العريضة البيضاء بالشعر الذهبي النامي عليها، بدا للمرة الأولى وكأنه أدرك أن هذا الرجل أبيض، جندي أمريكي أسره اليابانيون.

انبعث أحد الضباط الواقفين في المؤخرة يضحك، ربما بقصد تخفيف توتر الجمع، قال:

- الوغد، يرقد في سلام، أليس كذلك؟ ولا يدري أن أمره سينتهي في نصف ساعة.

ترددت كلمتا «أمره سينتهي» على نحو أجوف في أعماق تودا، لم يكن إدراك أن هذا العمل هو جريمة قتل قد تشكل في ذهنه، أن يجرد شخصاً من ملابسه ويرقده على مائدة عمليات، يعطيه الأثير، كل هذا قام به نحو مرضى بلا حصر، منذ أيام كان طالباً إلى الوقت الحالي واليوم كان يفعل الشيء نفسه. خلال لحظة سيدعو العجوز بصوته الخفيض إلى تحية الانحناء التقليدية للمريض، وتبدأ العملية. ستتردد القرقعة المعدنية للمقصات والملاقط، والصوت الجاف الذي يصحب المشرط الكهربائي، ويبدأ العجوز في القطع بخط مستقيم واصفاً القطع الناقص في ذلك الصدر الذي يغطيه الشعر الكستنائي. ما الفارق بين هذه العملية وغيرها من العمليات؟ عبر السنين أصبح البريق الناصع المزرق المتألق من مصباح السقف والأشباح البيضاء التي ترتدي معاطف الجراحة وتتحرك في تؤدة بالإيقاع البطيء الذي تتحرك به أعشاب البحر الطافية أموراً مألوفة له، لم يكن جسم الأسير الراقد ووجهه نحو السقف يختلف بأي حال عن المرضى العاديين. لم يتحرك قط في تودا الشعور الصارخ بأنه يوشك على أن يقتل شخصاً، أحسّ بأن كل شيء سينتهي تلقائياً نهاية مناسبة. غرس بفتور القسطرة الطويلة الرفيعة في أنف المريض، كان الأنف طويلا محمر الطرف، أنف رجل أبيض، كان كل ما يتعين على تودا القيام به هو تثبيت فوهة جهاز الأوكسجين لاستكمال الاستعدادات. بدا أن الأثير قد أحدث كامل مفعوله، فقد أغفى الأسير، وندت أصوات شخير خفيف عبر القسطرة. ثبتت أطواق جلدية غليظة الإحكام ساقيه الموضوعتين في سراويل زيه المرقط ويديه، واجه السقف غافلاً عن تحديق المحيطين به فيه، كان التعبير المرتسم على وجهه مسترضياً إلى الحد الذي بدا معه

وكأن ابتسامة تتلاعب على شفتيه.

سأل دكتور شيباتا العجوز بعد فحص مؤشر ضغط الدم:

- ينبغي أن نبدأ يادكتور، أليس كذلك؟

بدا العجوز الذي كان يحدق في الأرض كما لو كان قد مسّه الفزع حين سمع السؤال.

تحدث آساي بحدة قائلاً:

- لسوف نبدأ.

كان المناخ السائد غارقاً في الصمت إلى حد أن صوت ابتلاع الريق الذي أعقب ذلك سمع بوضوح.

- تبدأ عملية تشريح الأسير الحي في الساعة الثالثة وثماني دقائق، سجل هذا ياتودا!

التقط العجوز المشرط الكهربائي بكفه، إنحنى على الأسير. كان بمقدور تودا أن يسمع الطنين الكئيب للكاميرا السينمائية خلفه، فقد بدأ دكتور أراجيما من القسم الثاني للجراحة في تسجيل عملية تشريح الأسيرحياً، وفي اللحظة عينها بدأ بحدة مفزعة مسلسلة من النحنحات والتنخمات يرتفع من ناحية الضباط.

أحسّ تودا وهو ينظر إلى مؤشر ضغط الدم بفكرة غريبة تثقل عليه: «لسوف أظهر في هذا الفيلم أيضاً، فكر في الأمر! فحصت المؤشر لتوي، تحركت رأسي، إنها حركة شخص، حركتي وأنا عاكف على قتل إنسان، ستسجل حركاتي في هذا الفيلم حتى أدق التفاصيل، حركات قاتل، وفيما بعد حينما يعرض الفيلم هل يثير أي انفعالات خاصة في أعماقي؟».

أحس تودا بخيبة أمل وإعياء يستعصيان على الوصف. كان قد توقع هذه اللحظة، لكنه كان يأمل في خوف أكثر تموجاً بالحياة، في وجيب أكثر حدة للقلب، في اتهام عنيف للذات، ولكن صوت انسياب الماء على الأرض والصدى المقرقع للمشرط الكهربائي كانا كئيبين وموحيين بالملل، وداعيين للحزن على نحو غريب فحسب. غاب حتى المناخ المعهود من الاكتراث المفعم بالتوتر والقلق حول أن صدمة قد تهدد المريض أو أن يرتفع نبضه أو يتغير تنفسه فجأة، كان الجميع يعلمون أن هذا الرجل سيلقى حتفه، لم يكن ثمة داعٍ على الإطلاق لإطالة حياته، لذا اتسمت حركات العجوز الممسك بالمشرط الكهربائي، ودكتور آساي الذي عكف على مساعدته و شيباتا الذي وقف جانباً، وكبيرة الممرضات أوبا التي أشرفت على الأدوات والشاش- اتسمت جميعها بالامبالاة والفتور.

استمر طنين الكاميرا كذي قبل مختلطاً بضجة المشرط الكهربائي والمقصات.

حدث تودا نفسه «ما الذى يفكر فيه أوجيما وهو يلتقط صوره؟ أين تراني سمعت هذا الصوت من قبل؟ نعم هو! صوت صرار الليل، لقد سمعته في تلك المرة التي ذهبت فيها إلى دار ابنة خالي في أوزو، وحينما مضيت إلى المدرسة في نانيوا، لماذا أفكر الآن في الشيء الأحمق اللعين الذي اقترفته حينذاك؟».

التفت، اختلس نظرة إلى الضباط الملتفين خلفه على حافة المجموعة. أشاح ضابط شاب ذو عوينات برأسه بعيداً، وقد اكتسى وجهه بلون الشمع، بدا أن الملمح البصري الأول لأحشاء رجل حي كان أكثر مما يحتمل لكنه حينما أدرك نظرة تودا، تطاول بقامته وعبس.

إلى جانبه وقف الضابط ذو الشارب، وقد فغر فاه في بلاهة وتألق العرق على وجهه، كان يقف وراء الضابط اللحيم، ماداً عنقه ليحدق من فوق رأسه، راح يلعق شفتيه مراراً وتكراراً، وكأنما عقد العزم على ألا تفوته لحظة واحدة من المشهد الذي يفض أسراره بين يديه.

غمغم تودا محدثاً نفسه: «أوغاد سخفاء! يالهم من أوغاد سخفاء».

لكن تودا لم يستشعر في نفسه قدراً كافياً لتأمل السبب في أنهم سخفاء، وإعمال الفكر في هويته الذاتية، فقد كان التفكير على إطلاقه يتطلب جهداً كبيراً، وكان دفء غرفة العمليات في ذاته يجعل المرء يشعر بأنه يوشك على فقدان الوعي. أثقل الهواء الملحي عليه، فألقى نفسه عاجزاً عن التركيز فيما يفعل.

بدأ الأسير الراقد على مائدة في السعال بعنف، تدفق الإفراز إلى شعبه الهوائية، مدّ آساي يده إلى قناع المخدر، وسمعه تودا يسأل العجوز.

- هل أستخدم الكوكايين؟

- لاداعي.

استقام العجوز ناهضاً عن مائدة لعمليات، تحدث بصوت يخنقه الغضب:

- إنه ليس مريضاً.

أربكت لهجته الغاضبة الجميع، فأوغل صمت غرفة العمليات في التعمق، ووحده طنين الكاميرا الكئيب المتطاول استمر بلا هوادة.

رأى سوجورو أمامه فيما كان مستنداً إلى الجدار ظهور الضباط، بين الحين والآخر كانوا يتنحنحون أو يراوحون في مكانهم مع شعورهم بالوقر الذي يثقل أقدامهم، وفي مثل هذه

الأوقات، كانت فرجة تنفتح بين اثنين منهم لوقت قصير، فيلمح سوجورو على عجل العجوز ودكتور شيباتا عاكفين على مائدة العمليات والمريض في سراويله الخضراء المرقشة مقيداً إلى المائدة بالأطواق الجلدية.

– مشرط!

– شاش!

– مشرط!

كان دكتور شيباتا يصدر تعلمياته إلى كبيرة الممرضات أوبا بصوت خشن.

حدث سوجورو نفسه قائلاً: «سيعقب ذلك القشط وبتر عظام الضلوع».

كان باعتباره طبيباً مقيماً يستطيع القول بناء على الأوامر التي يصدرها دكتور شيباتا بالموضع الذي يبتره العجوز في جسد الأسير، ويصور لنفسه على وجه الدقة ما يحدث.

أغمض عينه، حاول التفكير بأنه ليس مشتركاً حقاً في عملية تشريح لكائن حي تجري على أسير، وإنما تلك عملية روتينية تجري على مريض عادي، حاول أن يجبر خياله، راح يحدث نفسه: «دعنا نساعد المريض، دعنا نعكف على ما بين أيدينا، أعطه حقنة كافور، زوده ببعض الدم الجديد! «واصل ذهنه الكدح:» ذلك هو وقع أقدام أوبا، ستعطي بعض الأوكسچين للمريض».

ولكن في تلك اللحظة تردّد الصوت الكئيب لتحطم عظمة ضلع، بعد لحظة رنّ الصوت الأكثر خفة لسقوطه في الوعاء الخاص به منعكساً على جدران غرفة العمليات، ربما كان الأثير قد إنقطع فجأة، فقد صدر أنين مفاجيء عن الأسير. تسارع إيقاع وجيب في صدر سوجورو والهمس المدوّي بداخله: «إلى المساعدة، إلى المساعدة».

فجأة طفا مشهد عملية السيدة تابي في ذهنه، في ذلك الصباح انسحب كل الواقفين حول المائدة التي تمدّد عليها جثمانها ممزقاً ومنتهكاً كأنه رمانة إلى الجدران، وقد اكفهرت وجوههم، كان الصوت الوحيد الذي تردد حين ذاك هو التقاطر الخافت للماء على الأرض تحت وهج مصباح السقف، وكانت كبيرة الممرضات أوبا هي التي عادت بالجثة، وكأنها لاتزال تنبض بالحياة، إلى الغرفة. كان دكتور آساي قد حدّث الأم والأخت في ركن الدهليز المعتم، وقد ارتسمت ابتسامة مصطنعة على شفتيه: «كانت العملية ناجحة».

– ألا يمكننا تقديم المساعدة؟

فجأة أحس سوجورو بدفق من الإحباط المترع بالشعور بالعار يملأ صدره بكثافة أوشكت أن تخنقه. كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يرفع يديه ويطيح جانباً بكواهل الضباط المصطفنين أمامه، بوسعه أن ينتزع المكشط من يد العجوز، لكنه حينما نظر أمامه رأى كواهل الضباط ملتمة في كتلة عريضة، تدلت إلى جوانبهم سيوفهم متألقة ببريق رصاصي كئيب، تصادف أن التفت أحد الضباط، لما رأى سوجورو واقفاً خلفهم مرتدياً معطف جراح رمقه بنظرة متشككة، استحالت النظرة إلى تحديق مترع بالغضب والاتهام.

تساءلت هاتان العينان: «ماذا دهاك؟ هل أنت خائف؟ كيف يمكن أن يكون شاب ياباني يمثل هذا الضعف؟».

تلوى تحت نظرة الضابط المحدقة مدركاً مابدا عليه: طبيب عاجز عن القيام بواجباته، مدركاً كذلك لما كان عليه حقاً: جبان خائر القوي، عجز عن رفض ما عرضه دكتور شيباتا.

أصدر أنيناً وهو يتطلع نحو الأسير مرتدي السراويل الخضراء المرقطة الراقد على مائدة العمليات: «لا أستطيع إتيان شيءعلى الإطلاق، ليس بمقدوري إتيان شيء لأجلك»

في تلك اللحظة تردد صدى صوت آساي:

– تم بتر الرئة اليسرى بالكامل ، ويجري الآن استئصال القطاع العلوي من الرئة اليمنى. وفي التجارب التي أجريت حتى الآن كانت نتيجة استئصال نصف كل من الرئتين هي الوفاة الفورية.

عندئذ شرعت أحذية الضباط تحدث صوتاً مقرقعاً كئيباً. في بعض الأحيان كان الضجيج الذي تحدثه كاميرا أراجيما يتوقف، وكان الصوت الوحيد المنتشر الآن في الغرفة هو صوت التدفق الواهن للماء.

عكف تودا على قراءة ضغط الدم:

– أربعون... خمسة وثلاثون... ثلاثون... خمسة وعشرون... عشرون... خمسة عشر... عشرة... لقد انتهى.

بعد إبلاغ هذه المعلومات إلى العجوز ودكتور شيباتا حسبما يقتضي عمله، انتصب تودا وئيداً بقامته، استمر الصمت للحظات قلائل، ولكن أخيراً ومثلما يتهاوى سد، شرع الضباط في السعال وحك أحذيتهم. جفف الضابط الطبيب البدين الواقف في الصف الأمامي العرق من رأسه بمنديل، قال؟

– هكذا انتهى الأمر، كم الساعة؟

رد آساي:

– الرابعة والدقيقة الثامنة والعشرون، بدأت العملية في الثالثة وثماني دقائق، وبالتالي كان الوقت المستغرق هو ساعة وثلث الساعة.

حدق العجوز في الجثة دون أن ينبس ببنت شفة، كانت يداه المقفزتان تتألقان بالدم تحت ضوء السقف، ولاتزالان على إمساكهما في إحكام بالمشرط. عمدت أوبا، وكأنما لإزاحته عن الطريق، إلى دفع نفسها بينه وبين المائدة، وغطت الجثة بملاءة بيضاء، ترنح العجوز قليلاً وتراجع خطوة أو خطوتين، لكنه ظلّ واقفاً هناك دونما حراك.

حينما فتح الضباط باب غرفة العمليات، وانطلقوا في الدهليز، كانت شمس الأصيل الواهنة تلتمع عبر النوافذ، أطلوا من إحداها لبعض الوقت حاكين أعينهم محركين أعناقهم، وقد علا الضيق ملامحهم ومدلكين أكتافهم متثائبين بأصوات عالية.

تطوع أحدهم قائلا بصوت تردّد صداه عالياً منعكساً على الجدارن على نحو ما اعتزم:

– ما من شيء متميز على الإطلاق.

– ملازم موراي، وجهك يبدو كما لو أنك انتهيت لتوك من مضاجعة امرأة.

أشار المتحدث بأصبعه إلى عيني رفيقه دون أن يشي صوته بلمسة تعجب، أضاف:

– عيناك محمرتان.

لكنه لم يكن وحده الذي احمرت عيناه، فقد كانت وجوههم جميعاً متضرجة بالدم، وقد كساها العرق، مثلما يحدث عقب مضاجعة امرأة.

– هل الأمر كذلك؟ طيب،، إني أعاني من صداع أيضاً.

– حفل وداع الملازم أموري سيقام في الخامسة والنصف، فهيا بنا لنشم بعض النسيم. تتابع وقع أقدامهم عالياً فيما هم يهبطون الدرج.

حينما انصرفوا أطلت كبيرة الممرضات أوبا في حذر إلى الدهليز، ولما تيقنت من عدم وجود أحد دفعت هي والممرضة يوئيدا بالعربة التي تحمل الشيء المغطى بالملاءة البيضاء. راقبها سوجورو الذي انتقل إلى غرفة الانتظار فيما كان مستنداً على الجدار، بدت قرقعة العربة

وكأنها قد سحرته، كان الصوت يتوقف ثم يعود من جديد بين الفينة والفينة إلى أن توقف تماماً، بعد اختفاء العربة عبر الدهليز الطويل المهجور الذي كانت أرضه تلتمع على نحو كئيب في ضوء الشمس الشاحب.

لم يدر أين مضى، ولم يعرف ما الذي ينبغي عليه أن يفعله. كان العجوز آساى وشيباتا وتودا لايزالان في غرفة العمليات، لكن سوجورو لم يستطع العودة إلى هناك.

دوى في أذنيه صوت أحدهم منشداً بإيقاع لاشكل له:

– قتلوه... قتلوه... قتلوه... قتلوه...

بذل سوجورو جهداً ليسكت الصوت: «لم أفعل شيئاً على الإطلاق، لم أفعل شيئاً على الإطلاق». لكن هذا النداء بداخله استمر محولاً نفسه إلى دوامة مجردة من المعنى.

– هذا هو الأمر، لقد وصلت إلى جوهره، إنك لم تفعل شيئاً على الإطلاق وقت وفاة السيدة العجوز وفي هذه المرة أيضاً لم تفعل أي شيء على الإطلاق، إنك هناك دائماً، هناك دائماً، دون أن تفعل أي شيء على الإطلاق!

بينما كان يهبط الدرج وصوت وقع أقدامه يرن في أذنيه خطر بباله أنه قبل ساعتين فحسب صعد الأسير الأمريكي دون أن يراوده الشك على الاطلاق الدرج ذاته وهنا، تراءى له بوضوح من جديد شبح الأسير الأمريكي وقد ارتسم تعبير يائس على ملامحه، ثم حلت الصورة الفجائية لكبيرة الممرضات أوبا وهي تلقي في خشونة بملاءة على اللحم الممزق المدمى.

أحسّ بزوره يتوتر بدافع عنيف إلى التقيؤ انحنى أمام النافذة، حدث نفسه بأنه كان ينبغي عليه أن يكون قد تعود فإن لون ذلك الدم، ولون ذلك اللحم كان يختلف عما شاهده في العمليات السابقة كافة عبر تلك المدة الطويلة، ولكن هل كان لون اللحم والدم هو الذي أثار فيه الدافع للتقيؤ، أم ترى ذلك يرجع إلى الوحشية البشعة في حركة كبيرة الممرضات أوبا؟

خارج النافذة كانت الأسلاك البارزة من محطة الاتصال تطن في هواء الأصيل البارد، حلق طائران أو ثلاثة عبر السماء الشتوية الجهمة، اصّاعد الدخان وئيدا من مدخنة التعقيم، من المدخل الخلفي البعيد كانت مجموعة عمل من الممرضات تعود حاملة سلالها وجارة مجارفها في إعياء، كان كل شيء على حاله كالأمس تماماً، المشهد العادي ذاته للمستشفي في أمسية شتائية. إستند إلى النافذة، إنتظر لثانية انقضاء موجة الغثيان، ثم بخطى متثاقلة هبط الدرج.

لم يلمح الضباط في الحديقة. كانت الممرضات اللاتي عدن من البوّابة الخلفية قد وضعن سلالهن، ورحن الآن يجففن وجوههن بالمناشف مقبلات في اتجاهه. حاول غريزياً أن يشيح بوجهه ويجتازهن كما لو كان يهرب، لكن إحداهن، وكانت قد جلست على صخرة لترتاح، نادته بصوت مرح:

– دكتور، ألن يقوم كبير الجراحين بجولته في العنابر اليوم كذلك؟

لم يرد سوجورو، حدث نفسه قائلاً: «لاشيء يدعو للقلق، هؤلاء الممرضات لايعرفن شيئاً، لماذا أحاول الاختباء؟».

– دكتور هل ستأتي؟

– نعم سأكون هناك.

أخيراً أفلح سوجورو في قول هذه الكلمات.

حدّث نفسه قائلاً: «إنها على حق، فلم تخطر ببالي طوال اليوم على الإطلاق جولات العنابر، ولكن الآن إذا مضيت إلى العنابر فلماذا إذن؟ أن أحدث المرضى كأن شيئاً لم يقع، أن ألتقط صور أشعة إكس، أن أملأ سجلات الفحص... وغداً سأحيا من جديد حياتي كطبيب مقيم مع العجوز، مع دكتور شيباتا مع دكتور آساي مع تودا، أتراني سأستطيع القيام بالجولات كذي قبل؟ هل سأفحص مرضى العيادة الخارجية، أهذا كله ممكن؟ ألن يحدق فيّ الوجه اللطيف لهذا الأسير الأشقر مطلاً من بين وجوههم؟ ليس بإمكاني القيام بهذا، ليس بمقدوري النسيان».

نظر إلى الأرض، في أخدود صغير فيها رأى عدة جذور أشجار الحور، لقد اجتثت الشجرة أخيراً، انتهت المهمة التي استغرقت من العامل العجوز طويلاً، راح يحدق شارداً في بقايا الشجرة. فجأة فكر في السيدة العجوز، التي حملت تحت المطر المنهمر داخل تابوت خشبي، لقد مضت شجرة الحور، ومضت السيدة العجوز أيضاً.

همس لنفسه: «لن أعود إلى المعمل، سأغادر هذا المكان، لقد دمرّت حياتك».

ولكن أتراه كان وحده فحسب؟ ألا يمكن أن يقال الشيء عينه عن الجميع؟ لم يدر كيف يجيب.

(٢)

حينما خرج تودا من غرفة العمليات وكان آخر من غادرها، وجد آساي ينتظره في الدهليز ممسكاً بوعاء من النوع المستخدم خلال العمليات الجراحية، وكان ملفوفاً بالشاش، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه.

– تودا، انتظر لحظة، هلا أحضرت هذا إلى قاعة المؤتمرات من أجلي؟

– بلى يادكتور!

– السادة العسكريون يقيمون حفل وداع هناك.

– ما هذا؟

– شيء أمر الضابط الطبيب تاناكا بإحضاره، إنه كبد الأسير.

رفع آساي الشاش، وسلم الوعاء إلى تودا، كانت كتلة بنية قاتمة من اللحم تغرق في سائل غليظ ملطخ بدم أحمر قاتم.

– ما الفكرة من هذا؟

– يمكن حفظه في الكحول، ربما، وتقديمه كهدية ممتازة.

قالها آساي بصوته متماسكاً على ما كان في مرات سابقة حينما كان يفزع من تشريح جثة أو شيء من هذا القبيل، فيعكف على أداء المهمة التالية.

فيما هبط تودا بنظرته المحدقة إلى كتلة اللحم الزلق، كان بمقدوره أن يتصور بطن الأسير البيضاء العريضة، وهو راقد على مائدة العمليات مواجهاً السقف، تلك البطن التي تألقت بما يوشك أن يكون وهجاً ناصعاً، حينما عكفت كبيرة الممرضات أوبا على وضع الميكروكروم، الآن هو ذا قد رحل، وما عاد له وجود في أي مكان، ليس في أي مكان على الإطلاق، غير هذه الكتلة الثقيلة الغارقة في هذا السائل الأحمر القاتم المتجمد، ترى أتلك حقيقة الأمر؟ أحسّ بشعور ثقيل يضغط عليه، وكأنما هذا كله حلم، تلك البطن العريضة البيضاء، قطعة اللحم البنية الكئيبة هذه، لم يستطع التوفيق بينهما، جعله عجزه عن الفهم يقف للحظات قلائل على حافة الدوا

– ليس بها الكثير.

همس بها آساي فجأة بصوت ناعم، أضاف:

– لقد اعتدنا جميعاً على النظر إلى الجثث، لكن العاطفية تظل دوماً جاثمة فوقنا.

رفع تودا عينيه بهدوء، اختلس نظرة إلى وجه آساي، كانت العوينات المجردة من الإطار قد انزلقت إلى أنفه، لم يتغير فيه شيء، كان وجه الرجل الذي يحظى بموهبة خاصة في توجيه الكلمات العذبة الباعثة على الشعور بالعزاء إلى المرضى خلال جولات العنابر، وجه الرجل الذي يطل على المعمل مصفراً ومطرقعاً بلسانه فيما هو ينتقل من كشف تسجيل حالة مريض إلى كشف آخر، لم ترتسم عليه إمارة تدل على إنه قتل رجلاً لتوه.

«ووجهي مثله»، وكانت الفكرة مؤلمة بالنسبة لتودا، راح يحدث نفسه: «لم يتغير شيء، فالهدوء يغمر فؤادي، ولم تظهر على الإطلاق لطمات الضمير وطعنات الشعور بالذنب التي انتظرتها طويلاً، لم أستشعر خوفاً من تمزيقي لحياة إنسان آخر، ولم لا؟ لماذا يتجرد فؤادي من الحياة على هذا النحو؟». ضغط آساي والابتسامة الغامضة لاتزال تتلاعب على شفتيه ذراع تودا الممسك بالوعاء، قال:

– تودا، هناك شيء أود التحدث معك عنه، هل فكرت في أن تبقى فيما بعد بالجامعة هنا؟

– بالجامعة؟

– نعم، كعميد، لقد قال دكتور شيباتا شيئاً عن ذلك مؤخراً، فإذا تصادف أنك تريد...

– طيب، لست أدري، هناك من هم مؤهلون أكثر مني.

قالها تودا خافضاً ناظريه وقد غمره شعور بأن هنالك شيئاً ما وراء كلمات آساي، أضاف:

– هناك سوجورو.

– لا، ليس سوجورو، فلا أمل فيه ياتودا، أين كان اليوم في اللحظة الحاسمة؟

– كان هناك في غرفة العمليات، إني على يقين من أنه كان يرقبنا من الخلف.

– آمل ألا يقول شيئاً ذلك الشخص.

فجأة دنا وجه آساي، وارتسم عليه تعبير قلق. أضاف:

– لئن وجدت أقل فرصة لتسرب أي شيء...

– لاتقلق بشأنه، فكل ما هناك أنه لايستطيع احتمال الأمر.

– إذا كان الأمر كذلك، فهذا يشعرني بالتحسن، طيب، على أي حال، فكّر فيما قلته لك، هل ستفعل ذلك؟ والعجوز أيضاً لم يعد لديه الجلد الذي يقتضيه المقام، ومن الآن فصاعداً نعتزم أناودكتور شيباتا أن نجعل القسم الأول للجراحة يقف على قدميه ثانية، وإذا أحببت الانضمام لنا سيكون أمراً مثل التوصية بك معيداً أمراً بالغ السرور، ثم هناك شيء آخر عليك أن تضعه في ذهنك؛ فيما يتعلق بموضوع اليوم، منذ الآن فصاعداً سنبقى معاً يداً واحدة، فنحن متورطون في الأمر بعمق على نحو ماترى.

حينما اختفى آساي عبر الدهليز المهجور، أحسّ تودا، وهو لايزال ممسكاً بالوعاء، بإعياء كاسح عميق يجتاح جسده.

قال لنفسه: «نبقى معاً يداً واحدة، يريد أن يستغل روح التواطؤ ليجرني معه، ويحاول دون تسرب أي همس حول الموضوع، وكأنما ليس بمقدوري أن أدرك ما هو بسبيله: أرجحة طعم جذاب أمامي لدعم مركزه في القسم الأول للجراحة، ذلك الوغد آساي، ترى فيم يفكر بالنسبة لقطعة اللحم الموضوعة هنا؟». هل نسي آساي كل شيء عن موت الأسير الذي كان ينبض بالحياة قبل ساعتين فحسب، وترتسم نظرة متوترة في عينيه البنيتين؟ فور خروجه من غرفة العمليات كان بمقدوره أن يربط كافة الأطراف المتباعدة لضمان مستقبله، راح تودا يتعجب إزاء هذه المقدره المتميزة على ترتيب الأمور بمثل هذا البرود. ولكن ما الذي أفكر فيه أنا الذي يمسك الآن بهذا الوعاء المحتوي على اللحم؟ هذه الكتلة البنية القاتمة الغارقة في سائل أحمر قاتم، ليس هذا ما أخافه، إن قلبى من الغرابة بحيث أنني لا أشعر بشيء، لا ألم على الإطلاق، حينما أنظر إلى شيء كان جزءاً من إنسان قتلته عمداً.

دفع الباب الغليظ لقاعة المؤتمرات بكتفه، وفتحه، التفت ثلاثة أو أربعة ضباط إليه، كانوا قد نزعوا ستراتهم، وجلسوا إلى جوار مائدة وضعت عليها أقداح الساكي وغيرها من أدوات المائدة، وراحوا يدفئون أيديهم على مجمرة تضم جذوات فحم مشتعل.

– هل الضابط الطبيب تاناكا هنا؟

– سيحضر حالاً، ماذا تريد؟

– إنه شيء أمر به.

– شكراً.

نهض أحد الضباط، وكان الرجل الذي حاكى وجهه الشمع شحوباً خلال العملية. حينما نزع الشاش، وألقى نظرة إلى داخل الوعاء، تقلص وجهه على نحو مؤلم.

– ماذا دهاك؟ ياملازم إيبارا؟

قال تودا:

– إنها كبد الأسير.

بعد أن أدى المهمة التي عهد بها إليه استدار وغادر القاعة الغارقة في الصمت.

أغلق قاعة المؤتمرات، امتدت أرضية الدهليز الطويل ببريقها الرصاصي الكئيب أمامه، لم يكن ثمة أحد، ولو أنه عاد مباشرة عبر هذا الدهليز، لأفضى به إلى غرفة العمليات مرة أخرى. فيما كان يفكر في هذا أحسّ برغبة داخله تتقد، وتدفعه للعودة وإلقاء نظرة على تلك الغرفة، كان ذلك انفعالاً عجز عن السيطرة عليه. «مرة واحدة أخرى فحسب، أريد أن أرى ماذا سيحدث إذا عدت هناك بعد ذلك».

تلاشى الضوء الأخير المنساب في نهاية الأصيل من النوافذ، عم الهدوء كل شيء، ومن قاعة المؤتمرات خلفه كان بمقدوره أن يسمع رنين الأصوات الخفيض بين الحين والآخر عبر الباب. بعد أن هبط درجة أو درجتين من السلم، توقف، ثم استدار عائداً فجأة، فرددت جدران الدهليز وقع خطاه، وغذ السير نحو غرفة العمليات.

بدا الباب موارباً قليلاً، حينما دفعه انفتح بصرير كئيب، نفذت رائحة الأثير الخافتة إلى خياشيمه فوق أعلى منضدة التجهيز بالغرفة الملحقة، كانت زجاجة مخدر ترتمي وحيدة على جانبها.

للحظات قلائل وقف تودا في منتصف الغرفة تذكر أن الأسير أعرب عن دهشه هنا بقوله: «هذا أثير، أليس كذلك؟» كانت النغمة الطفولية للتعجب لاتزال تدوي في أذنيه، تملك خوف لاقوام له للحظة ناصية فؤاده، لكنه احتفظ بسيطرته على نفسه، فانحل الخوف إلى تموجات وتبدد، تاركاً إياه مع شعور قابض لا يريم.

كان ما يريده الآن شعوراً مريراً بتجريم الذات، الارتطام الحاد الذي يطعن صدره، الندم الذي يقطع ويمزق فؤاده ولكن رغم عودته إلى غرفة العمليات فلم يتدفق مثل هذا الشعور في أعماقه. كان قد اعتاد منذ وقت طويل على عكس الإنسان العادي على دخول غرفة العمليات وحيداً بعد القيام بعملية، هل كان هنالك فارق بين تلك المرات المرات والوقت الراهن؟ ولو

أنه كان هناك فارق فقد ألفى نفسه عاجزاً عن الإمساك به.

«ها هنا نزعنا عنه سترته المرقطة». راح يتتبع في إصرار في ذهنه كافة جوانب المشهد الذى وقع، وانتظر عبثاً أن يعتصر ألم الندم قلبه. «ذلك الأسير بدا مرتبكاً كأنه امرأة إزاء تحديق العيون في صدره المكسو بالشعر الأشقر، غطاه بكفيه ثم مضى على نحو ما قال له آساي إلى غرفة العمليات هناك».

فتح برقة الباب الداخلي، حرك مفاتيح الضوء، فانعكس وهج مصباح السقف الأبيض المزرق مرتداً عن جدران الغرفة، ثمة خدش خفيف في سطح مائدة العمليات، كانت هناك لفافة شاش تعرضت للنسيان عليها لطخة دم قاتمة، لم يستشعر تودا ألماً حتى في مواجهة ذلك. «أحسب أنني بلا ضمير، لست وحدي في هذا، فلم أشعر أياً منهم بشيء حيال مافعلوه هنا».

كان الشعور الوحيد الذي اخترم فؤاده هو احساس بأنه سقط إلى أدنى ما يمكن للمرء ان ينحدر إليه، أطفأ المصباح، وعاد الدهليز من جديد.

كان الدهليز ملتفاً بالفعل في عباءة من عتمة المساء. خلال مسيرة تودا سمع الصدى الحاد لوقع أقدام يتناهى من الدرج الذي كان في طريقه إليه، رقى أحدهم وئيداً، وانعطف باتجاه غرفة العمليات لسبب لم يدر تودا كنهه. قادته خطاه إلى جانب إحدى النوافذ، وعكف على المراقبة فيما كان الرجل يرتدي سترة بيضاء يدنو، وشبحه ينهض في الظلام مثلما طيف من عالم آخر، كان العجوز.

وقف العجوز دون أن يلحظ تودا أمام غرفة العمليات، انتصب مواجهاً الباب دون حراك، وقد دس يديه في جيبي معطفه، وبدا ظهره مثقلاً، لم يستطع تودا تبين وجهه بوضوح، لكن الانطباع الذي عكسته الأكتاف المتهدلة والمثقلة والشعر الأشيب الذي لاح في الظلمة كان يوحي بالإيغال في العمر، والإعياء، والسأم. مضى العجوز يحدق طويلاً في الباب، وأخيراً انطلق باتجاه الدرج وصدى وقع أقدامه يتردد من جديد.

سمع سوجورو صوت ممرضة خلفه:

– دكتور، هلا أقبلت إلى العنبر لحظة من فضلك؟ هناك مريض يعاني من الحمى منذ الصباح.

التفت، وردّ بصوت خفيض:

– ليكن.

– لم نر دكتور آساي ولا دكتور تودا أو أحداً منكم اليوم، هل أجريت عملية؟

– لا، لم تجر عمليات.

– لكن كبيرة الممرضات أوبا اختفت كذلك. فجأة أرسلونا لحفر الخنادق، فيم هذا كله؟

اختلس سوجورو نظرة سريعة إلى وجه الممرضة الشابة، كان التعبير المرتسم على وجهها يوحي بالبراءة فيما تنتظر رده.

– سأحضر إلى العنبر، عليّ أن أجلب سماعتي.

انطلق إلى العنبر، وحينما شعر من صفوف الأسرة الثلاثة البيضاء المترامية البياض أمامه في الظل الكئيب بتحديق المرضى فيه، ارتجفت ركبتاه. عبر منكس الرأس الممر الفاصل بين الأسِّرة كأنه يعد، ليواجه محنة.

حدث نفسه في أنين: «لم يعد بوسعي أن أحدق في أعينهم، وهؤلاء الناس لايدرون شيئا عن الأمر كلة.

كان المريض المحموم راقداً في الفراش المجاور لميتسوا آبي، حيث كانت السيدة العجرز ترقد قبل شهر، حينما رأى سوجورو افترت شفتاه عن لثة محمرة تجردت من الأسنان على وجه التقريب. ضغط ملامح وجهه، حاول ثم حاول التعبير عما يؤلمه.

تدخلت ميتسو آبي قائلة: «يريد أن يقول إن بصقته تلتصق بزوره، ستكون على ما يرام الآن، دع الأمر للدكتور».

أمسك سوجورو في لطف بيد العجوز الممتدة، كانت مهزولة إلى الحد الذي كان بوسعه أن يحيطها بإبهامه وسبابته. جعلته لمسة ذلك الجلد الذي تكسوه البقع وتغضنه التجاعيد يفكر في ذراع السيدة العجوز. طارفاً بعينيه مرات عديدة سمع سوجورو صوت ميتسو آبي الواهن يتناهى من جانبه:

– افعل من أجله شيئاً يا دكتور! افعل من أجله شيئاً يا دكتور!

هبطت كبيرة الممرضات أوبا والممرضة نوبو يوئيدا إلى الطابق الأرضي المعتم في المصعد المقرقع. غمغمت نوبو يوئيدا ناظرة إلى السقف المعدني للمصعد الذي تهاوى منه الطلاء تماماً:

– هذا المصعد يحدث ضجة فظيعة ويحتاج إلى تزييت، أليس كذلك؟

لكن كبيرة الممرضات التي استندت إلى الجدار مغمضة العينين لم تكترث بالرد. حدثت نوبو نفسها بأن وجه كبيرة الممرضات أكثر جهامة من المعتاد، وجنتاها أكثر بروزاً، لم تتح لها من قبل فرصة فحص وجه كبيرة الممرضات على مهل وعن قرب من قبل، وقد أفزعها أن تلاحظ مدى اختلاط اللون الرمادي بالسواد في شعرها الذي نفر من غطاء رأسها الأبيض.

مضت بعينين قلقتين تفحص الملمح الجانبي لوجه كبيرة الممرضات، حدثت نفسها قائلة: «لقد طعنت في السن حقاً». منذ سنوات وقبل الزواج بأربعِ سنوات ولم تكن إلاّ ممرضة عادية، أما الآن فإنها وقد اغتربت عن رفيقاتها ودون أن يكون لها من تدعوه صديقاً، كانت تمضي بوجهها المجرد من التعبير وسط تقدير كبير من كافة الأطباء، وإن كانت الممرضات الأخريات يسخرن منها، ويدعونها «المتملقة» في غيابها. لم يكن وضع كبيرة الممرضات لقليل من طلاء الشفاه ولمسات التجميل بالأمر الذي يخطر ببال أحد، وكان أكثر استعصاء على الخيال تصور وجهها الأسمر ذي العظام الناتئة وقد فتن قلب أي مريض.

مضت نوبو محدثة نفسها مستشعرة مداً من الحسد والكراهية نحو هذه المرأة التي أصبحت رئيستها: «هكذا أصبحت الآن كبيرة الممرضات».

حينما هبط المصعد إلى الطابق الأرضي أمسكت نوبو بيد العربة التي كانت بينهما وجذبتها إلى الدهاليز، كانت مصابيح عارية تومض على نحو كئيب على مسافات ثابتة في السقف، الذي غطته أنابيب عارية. قبل الحرب كان هذا الجزء مخصصاً للمحال والمشارب التي يديرها المستشفى، أما الآن فقد خيم الغبار على الغرف التي تستخدم كملاجئ خلال الغارات، ولما كانت المشرحة في نهاية الدهليز، فقد بدأت نونو في دفع العربة في هذا الاتجاه ولكن كبيرة الممرضات التي التزمت الصمت حتى ذلك الوقت أوقفتها.

– إلى الجانب الآخر يا سيدة يوئيدا!

– ولكن ألا ينبغي أن توضع هناك؟

هزت كبيرة الممرضات رأسها نفياً، وقد ازداد التعبير المرتسم على وجهها قسوة، قالت:

– إلى الجانب الآخر!

– لكني أتساءل لماذا!

– ليس مهماً، نفذي ما أقول!

دفعت العربة المغطاة بالملاءة البيضاء عبر الدهليز الذي يفوح منه رائحة الأسمنت الرطب تجاه الجانب المضاد، وفيما كانت تدفع العربة راحت نوبو تفحص ظهر كبيرة الممرضات الفاصل العنبر، فيما كانت تمسك بالمقابض الموجودة في مقدمة العربة.

–إنها كالحجر، هذا هو شأنها، يخلو قلبها من أي تعاطف إنساني على الإطلاق.

أحسّت نوبو بصدمة فجائية في صدرها كأنها نتجت عن اصطدام لدى التفكير في وجه المرأة الأسمر الكئيب، تهاوى الضوء المنسكب من المصابيح العارية تاركاً ظلالاً معتماً على شيكارات الأسمنت، والأدوات الصحية ومختلف أنواع المقاعد التي برز حشوها منها، وواصلت عجلات العربة قرقعتها الباعثة على الملل. قالت نوبو عامدة:

– ياريسة، هل حدثك أحد من قبل عن اليوم؟

استخدمت كلمة «ريسة» عامدة بدلاً من «آنسة أوبا». لكن رفيقتها لم تكترث حتى بالنظر إليها، وإنما أمسكت في عناد بالمقابض، وواصلت التقدم، عند هذا ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي نوبو.

– هل حدثك دكتور آساي؟ لقد أبلغني بالأمر كله، فجأة حضر إلى شقتي، هل دهشت، كان قد عكف على شرب الساكي، وفيما بعد...

فجأة رفعت كبيرة الممرضات أوبا يديها عن مقابض العربة، قالت:

–هذا يكفي يا سيدة يوئيدا، أوقفي العربة!

– هنا؟ هل هذا مكان مناسب؟

لم تحر كبيرة الممرضات جواباً.

– هل سيأتي أحد ليتولى أمرها؟

– يا سيدة يوئيدا، إن عمل الممرضة هو تنفيذ توجيهات الأطباء والتزام الصمت.

على العربة بينهما بدت الجثة المغطاة بالملاءة ناصعة البياض في الظلمة. وقفت المرأتان للحظة تحدق إحداهما في الأخرى بعينين متوهجتين.

ازدادت صرامة كبيرة الممرضات وهي تضيف:

– ثم يا سيدة يوئيدا لماذا لا تحصلين على إجازة لبقية الأصيل وتمضين إلى دارك؟ لن

يكون هناك حاجة بالطبع إلى قول هذا، ولكن لا تتحدثي لأحد من اليوم وإذا تصادف أن ثرثرت حول هذا...

– إذا ثرثرت حول هذا، ماذا سيحدث؟

– ستحدث متاعب كثيرة لدكتور هاشيموتو هل تفهمين ذلك؟

تقلص فم يوئيدا وهي تقول:

– هل هذا صحيح؟ إذن فنحن الممرضات يمكن أن يكون لنا هذا القدر من الأهمية أليس كذلك؟ عندئذ همست وكأنما تحادث نفسها، وإن كان بصوت عالٍ يمكن لكبيرة الممرضات سماعه: «على عكس إحداهن لم أشارك اليوم بسبب دكتور هاشيموتو فحسب».

في هذه اللحظة وأمام عيني نوبو اختلج وجه كبيرة الممرضات ألماً، وفيما كانت شفتاها تتقلصان وترتعدان حاولت الغمغمة بشيء ما، لم يحدث قط أن شاهدت نوبو منذ التحاقها بالمستشفى كبيرة الممرضات تظهر أدنى علامات الأسى أمام مرؤوسة لها.

أفعم قلب نوبو بهجة، بعد أن لمست أخيراً نقطة الضعف في كبيرة الممرضات، حدثت نفسها قائلة: «تماماً كما ظننت، أليس هذا شيئاً ظريفاً؟ إن هذه المرأة الصوانية تعشق دكتورهاشيموتو».

دون أن توجه كلمة أخرى إلى كبيرة الممرضات أوبا، انعطفت، تجاهلت المصعد. انطلقت خارجة عبر مخرج الطوارئ الذي بني حديثاً إلى الحديقة.

كان الليل قد ابتلع الحديقة، قبل الحرب، وحينما كانت طالبة بمدرسة الطب، وعندما كان الليل يحل والأنوار تتألق في نوافذ كلية الطب والمستشفى، كانت هذه المباني بالنسبة لها تحاكي سفناً راسية مرفرفة الأعلام تذكرها بمهرجانات المرفأ في هاكاتا المجاورة حيث كانت تقيم ذات يوم. غير أن المصابيح الموقدة اليوم كانت خافتة الضوء وهي مصابيح غرفة الاستقبال والمكتب. سمعت أصواتاً عالية لرجال ينشدون أناشيد الحرب، أقبلوا من قاعة الاجتماعات التابعة للقسم الأول للجراحة بالطابق الثاني، كانت تلك النافذة بدورها تنسدل عليها ستائر سوداء، لكن بعض الضوء تسرب من خلال فتحة. حدثت نوبو نفسها: «إنهم الضباط الذين كانوا هناك اليوم، إن لهم أهميتهم، وفي وقت لا نجد ما نقتات به إلا الحبوب المغلية يلتهمون هم قدر ما يشاؤون، ترى ما الذي يأكلونه؟».

ثم تذكرت نوبو أنه بعد عملية التشريح دنا ضابط قصير لحيم بفمه من أذن دكتور

آساي، وهمس:

- هل لك في أن تقطع كبد الأسير لأجلي؟

- من أجل ماذا؟

فيما كانت عوينات دكتور آساي المجردة من الإطار تلتمع، ابتسم الضابط القصير اللحيم ساخراً وقال: سيلهو الضباط الأطباء مع الضباط الأصاغر بتركهم يجربون تناول بعضها.

وهنا، ولدى إدراك دكتور آساي لنوعية الرجل الذي يحدثه، ابتسم بدوره ابتسامة ساخرة.

حينما استعادت نوبو في ذهنها هذا الحوار ارتجفت باشمئزاز غريزي، ولكن بغض النظر عن هذه الحالة العابرة، كان سواء لديها أن يتناول الضباط كبد الأسير من عدمه. كانت قد اعتادت كممرضة على العمليات الجراحية ومرأى الدماء، ولم يثر فيها اليوم كون الرجل الراقد على مائدة العمليه أسيراً أمريكياً أي تخوف خاص، وحينما قطع دكتور هاشيموتو جلد الأسير، كان الارتباط الوحيد الذي أثاره هذا في ذهنها هو جلد هيلدا الأبيض، وتذكرت يد هيلدا البيضاء التي لطمت المكتب في غرفة الممرضات وهي توبخها على حقنة البروكايين التي كانت توشك أن تحقن بها المريض المصاب بالاسترواح الهوائي العفوي، واليوم، وتماماً مثلما هو الحال لجلد هيلدا كانت شعيرات ذهبية تغطي جلد الأسير. «ترى هل سيقول دكتور هاشيموتو أي شيء عن اليوم لهيلدا ؟ لن يقول شيئاً، لا أحسب هذا».

حركت نوبو في أعماقها بقوة الشعور بأنها قد أحرزت فوزاً بهيجاً على هيلدا، راحت تحدث نفسها قائلة: «أياً كان المدى الذي تذهب إليه هيلدا في اعتبارنفسها قديسة مباركة، لن يخطر ببالها ما اقترفه زوجها اليوم، لكنني أعلم كل شيء».

حينما عادت إلى شقتها كانت الغرفة مظلمة تماماً، جلست على درج المدخل وقد غلبها الإعياء فجأة، مكثت لبعض الوقت، وما زالت تنتعل حذاءها ويداها ممسكتان بركبتها محدقة في الأرض. سمعت صوت صاحب البيت البارد يتردد عبر الدهليز ثم صوت انصفاق باب.

- ياسيدة يوئيدا، لقد وضعت لك نصيبك من الحساء قرب النافذة، أعطني النقود فيما بعد من فضلك! في ظلام غرفتها تألق بياض أغطية الفراش والأطباق على نحو كئيب، من مذياع في دار الجيران تردد صوت إنذار في ضجيج معدني يمزق الآذان.

«ما الذي سأفعله الآن؟» كان الأمر على حاله دوماً، فحينما تعود من المستشفى إلى

هذه الغرفة الباردة، كانت تشعر بالوحدة والعزلة تقهرانها. «اليوم كالمعتاد انتهى العمل وانتهى كل شيء...»

نعم، اليوم كالمعتاد انتهى العمل، و لم يكن ما تفكر فيه الآن يتجاوز هذا. لما كانت قد ابتعدت عن المستشفى وقتاً حسبته طويلاً على نحو مفزع، فقد أحست على نحو خاص بإعياء بدني وذهني، أما في الغد فسوف يقتصر الأمر على فحص ضغط دم المرضى ولعابهم، وذلك كله، وقد تحضر السيدة هيلدا جاهلة يالأمر كله إلى المستشفى، حدثت نفسها بأن ذلك سيكون أمراً جميلاً، ثم فكرت في كبيرة الممرضات أوبا.

«إنها تعشق دكتور هاشيموتو، وأنا الوحيدة التي تعرف ذلك».

نزعت حذاءها، وألقت به جانبا ثم أوقدت المصباح الذي كان ملفوفاً بقماش خاص، أشعلت الموقد الغازي، ووضعت إناء به بعض الخضر. واجهت الوجبة المعتادة الكئيبة التي تناولتها وحيدة، وعلى نحو ما تفعل دائماً، التقطت من الخزانة ملابس الطفل التي حاكتها لوليدها ماسو ونشرتها في حجرها، وجلست دون حراك لوقت طويل تنظر إليها شاردة.

توهج طرف السيجارة في الظلام. نادى تودا بصوت خفيض بعد أن صعد إلى السطح:

- أهذا أنت ياسوجورو.

- نعم.

- أنت تدخن ؟

لم يحر سوجورو جواباً، كان مستنداً إلى الحاجز وذقنه بين كفيه ناظراً أمامه مباشرة. لف الظلام فوكوكا استعداداً لغارة جوية، فسواء أكان هناك إنذاراً بالغارة أم لم يكن، لم يتسرب ضوء واحد من المدينة مع مقدم الليل، لم يبد أن هناك أضواء حجبت، وإنما لاح أن الموت قد غلب الرجال والأضواء معاً.

- ماذا تفعل ؟

- لاشيء.

ثم أدرك تودا أن سوجورو يحدق في ثبات إلى الجانب الوحيد من المشهد الذي بدا متألقاً، كان يتطلع إلى البحر، وكان الترادف الواهن للأمواج السوداء وهي تندفع على الرمل يحدث صوتاً كئيباً. تثاءب تودا متعمداً، وغمغم بصوت ناعس:

– جولات العنابر من جديد، أليس كذلك؟ كان الأمر خشناً، كان شاقاً حقاً اليوم.

أطفأ سوجورو سيجارته، التفت إلى تودا، ثم اقتعد السطح الأسمنتي، لفّ ذراعيه حول ركبتيه وتطلع عالياً. قال بصوت واهن:

– ما الذي يمكن القيام به؟ ماذا سنفعل؟

– لاشيء، ما اعتدنا القيام به فحسب، لم يتغير شيء.

– ولكن اليوم! ألم يضايقك الأمر ياتودا على الإطلاق؟

– يضايقني؟ ما الذي تعنيه بقولك «يضايقني»، وهل كان ذلك من نوعية الأشياء التي ينبغي أن تضايق أحداً.

التزم سوجورو الصمت، تحدث أخيراً في صوت أكثر وهناً وكأنما يهمس به لنفسه:

– أنت قوي ياتودا، أما بالنسبة لي... لقد أغمضت عيني هناك اليوم، ولست أدري ماذا أحسب، بل الآن لست أدري.

أحسّ تودا بألم يطبق على زوره فيما هو يتحدث:

– ما الذي يضايقك؟ قتل ذلك الأسير؟ بفضله سنكون أفضل اقتداراً في علاج الآلاف من مرضى السل لأننا قتلناه، أتظن أننا كان يجب أن نتركه يعيش؟ ضمير الإنسان أليس كذلك؟ يبدو أنه يتباين كثيراً من إنسان لإنسان.

رفع تودا عينيه، حدق في السماء المعتمة، شيئاً فشيئاً شعر بأن كل الذكريات القديمة تشرح فؤاده، ذكريات الإجازة الصيفية في روكو، شبح ياماجوتشي واقفاً في ركن الملعب، الليلة المؤرقة على شاطئ بحيرة بيوا، الكتلة الدموية التي مزقها من رحم ميتسو في الدار المأجورة بياكوين، حقاً لم يتغير شيء على الإطلاق، كان كل شيء على حاله تماماً.

قال سوجورو ذلك «يوماً ما علينا أن ندفع الثمن، سيحدث هذا يقيناً، مؤكد أننا سندفع الثمن». تثاءب تودا مرة ثانية على نحو جلي، قال:

– ندفع ثمنه؟ للمجتمع؟ للمجتمع فحسب، ذلك ليس شيئاً يتعين على المرء لأن يجهد نفسه فيه، لقد تصادف أنني أنا وأنت وجدنا هنا في هذا المستشفى بالذات في هذه الفترة على وجه الدقة، وهكذا شاركنا في عملية تشريح أجريت لأسير حي، ولو أن أولئك الذين سيحكمون علينا وجدوا في الموقف ذاته، ترى هل سيفعلون شيئاً آخر؟ فلا تبال إذن بعقوبات

المجتمع!

أحس تودا بإعياء لايوصف، توقف عن الحديث، ما جدوى أن يشرح لامرئٍ كسوجورو جلية الأمر؟ انبعث في أعماقه شعور طاغٍ مرير بالعبث.

- إني ذاهب للدار.

تساءل سوجورو:

- أهذا هو الأمر إذن؟ سيعود كل شيء إلى حاله كذي قبل؟

راح يحدق وحيداً على السطح في البحر المتألق وسط الظلمة. بدا وكأنه يحاول تبين شيء هناك. أجبر نفسه على تشكيل الكلمات، موشكاً على العجز عن الهمس بها: «حينما تمضي السحب مثل الخراف... حينما تمضي السحب مثل الخراف، عندما تدوّم السحب كالبخار... عندما تدوّم السحب كالبخار...».

لكنه ألفى نفسه عاجزاً عن النطق بها، كان فمه يحترق.

- يبدو نثارك أيتها السماء أشهب، أشهب مثلما نهيرات من قطن...

لم يستطع سوجورو المضي أكثر من ذلك، لم يستطع سوجورو المضي أكثر من ذلك، لم يستطع المضي أكثر من ذلك.



المحتويات



مطابع انترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩

مثل هؤلاء الكّتاب اليابانيين قد
سقطوا، حتماً، على عنصر
واحد، متجاهلين العنصر الآخر
المتواتر معه، سواء بتجاهل
العنصر النقيض تماماً، أو
بتفسيره على نحو بالغ التهافت
إلى حد يفتقر معه للقوة الكافية
لجعله عنصراً في صراع
حقيقي.
اختار إندو، دون أن يردعه فيما
يبدو الفشل المزعوم الذي مني
به العديد من أبناء وطنه، لا أن
يحاول فحسب أن يصور على
وجه الدقة هذا الشكل من أشكال
الصراع، وإنما أن يضع هذا
الصراع ضد السلبية الفاترة
لنزعة وحدة الوجود التي ينظر
إليها باعتبارها المناخ الديني
السائد في اليابان.
ولعل رواية «البحر والسم»، على
الرغم من كونها عملاً مبكراً من
أعمال إندو، تتيح للقارئ أساساً
كافياً للخروج بحكم يصدره
بنفسه.

